الصراع الحضاري الحضاري في الإبداع القصصي

مقاربة نقدية تحليلية في قصة: ذكريات جبل طارق للكاتبة: آمنة بنت منصور

د.كمال سعد محمد خليفة
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية البنات الإسلامية
جامعة الأزهر

الملخّص:

تعنى الدراسة برصد الصراع الحضاري في القصة– القصة من ذات النوع الذي يسمونه (قصة أو رواية الأصوات)– بوصفه قوة الدفع التي تحمل المتلقي على الالتحام مع الأحداث والشخصيات، بدرجة يكاد فيها المتلقي أن يكون مشاركا لكل هذه الطاقات في بناء الفضاء الإبداعي. وإن كانت تنهض على قوائمه السائخة في تربة العمل الإبداعي، وتوظف طاقاته الفكرية والفنية!! فهي تحاول أن تكشف عن نقاط المواجهة الحضارية أو نقاط التماس بين طرفي الصراع.

حاولت هذه الدراسة أن تجيب عن السؤال الملح الذي طرحته هذه الإشكالية، لِمَ هذه المواجهة؟. وما طبيعتها؟ والرؤية الإسلامية لطرح هذه الصراعات عبر الأعمال الأدبية، والمقاربة التحليلية والنقدية لكل مفردات العمل الأدبي، والكشف عن وسائطه وأدواته التي وظفتها الكاتبة في تشكيل فضاءها القصصي عبر عدة محاور، طرحت رؤيتها فيما قدمته بين يدي هذه الدراسة، ثم تناولت الصراع بين تياريه المختلفين:

الأول: الصراع : افتراع وتباين !! .

الآخر: الصراع : التئام وانسجام .

ثم الخاتمة، التي سعيت فيها لبلورة عدة أفكار استنتجتها من خلال التواصل مع الفضاء الإبداعي؛ شكله ومضمونه.

الكلمات المفتاحيّة:

الصراع الحضاري، الفضاء، الإبداعي، التماس، المواجهة.

The Civilizational Conflict in Fiction: A Critical Analysis of Amna Ben Mansour's *Zikrayat Jabal Tariq* (Memories of Gibraltar)

Dr. Kamal Saad Mohammed Khalifa
Associate Professor of Literature and Criticism
The Islamic Faculty for Girls, Al-Azhar University

Abstract:

This study attempts to monitor the civilizational conflict in Amna Ben Mansour's *Zikrayat Jabal Tariq* (Memories of Gibraltar), a polyphonic novel, as a force that pushes the recipient to interact with events and characters, in a manner in which the recipient is almost a participant of all energies in forming creative space. Though it stands on weak legs in the soil of creative work, and employs its intellectual and artistic energies, it tries to reveal points of civilizational conflict or the points of contact between the parties of the conflict.

This study tries to answer urgent questions such as, what is the reason for confrontation? What is the nature of confrontation? The study examines the Islamic vision to put these conflicts through the literary works and the critical analysis of all elements of the literary work, disclosing the means and tools employed by the writer in structuring her fictional space in several sections in the paper. The study discusses the conflict between two different tendencies:

I. Conflict: Difference and Variance

II. Conflict: Harmony and Agreement

The conclusion summarizes ideas about the form and meaning of creative space.

Keywords:

Civilizational Conflict, space, creative, contact, confrontation

مقدمة

إن الناظر في الواقع الذي يعيشه العالم يجد الصراع في أوجه في شتى المجالات؛ الحضاري منها، والسياسي، والاقتصادي، وإذا كانت الأمة تعاني من التضعضع والانحسار السياسي أو العسكري وغيرها من المسارات التي نعيشها فلا أقل –كما يقول احد الأدباء– أن ننتصر ولو حضاريا أو إنسانيا. بأن نوظف في هذه المعركة كل هذا المخزون/الموروث الحضاري والإنساني والأخلاقي الذي أنتجته الأمة عبر تاريخها وحضارتها، عندما كانت تتقدم العالم بوصفها منارة الأمم في العلم والحضارة والقيم التي أفرزها دينها الحنيف. الأدباء هم جنود هذه المهمة، والإبداع الأدبي هو الذي باستطاعته أن يخوض هذه المعركة الحضارية –إن جاز التعبير– ليعالج كل هذه الانحرافات الإنسانية، والأفكار المغلوطة، وفق تصورنا الحضاري والإنساني، لمعالجة مثل هذه الصراعات، التي يزدحم بها الواقع؛ فينتصر للأمة في حضورها الإنساني والقيمي، ويقدم للعالم الأنموذج الحضاري المتقدم، الذي يتسلح بقيم التعايش والخير والعدل والحب لكل الإنسانية، وإبراز دوره الحضاري في البناء والتعمير للمجتمعات، والسعي في إنهاضها وفق رؤيته الحضارية للبناء.

من هنا، تعنى الدراسة برصد الصراع الحضاري في القصة –القصة من ذات النوع الذي يسمونه (قصة أو رواية الأصوات)–بوصفه قوة الدفع التي تحمل المتلقي على الالتحام مع الأحداث والشخصيات، بدرجة يكاد فيها المتلقي أن يكون مشاركا لكل هذه الطاقات في بناء الفضاء الإبداعي . وإن كانت تنهض على قوائمه السائخة في تربة العمل الإبداعي، وتوظف طاقاته الفكرية والفنية!! فهي تحاول أن تكشف عن نقاط المواجهة الحضارية أو نقاط التماس بين طرفي الصراع . إن جاز التعبير. في مناطق الإشعاع الحضاري،أو الالتماع الفكري على شاطئي المواجهة؛ تكتشف القيم الحضارية والبنيات

المعرفيـــة والثقافيـــة للمشـــروعين الحضـــاريين لطرفـــي المواجهـــة،عبر رحلـــة الشخصيات من نقطة البداية وحتى تصل إلى نقطة النهاية كما ينبغي لمن تتتبع دراساتهم إيقاعات الصراع، وتدفقاته، ونشاطه من المنبع وحتى المصب في العمل الفني.ومن ثم، نبدأ من نقطة انطلاق، مرورا بدوامات وتموجات الصراع التي تتعارك على سطح النهر، وننتهي عند نقطة نهاية، ينتصر فيها أحد طرفي الصراع على الآخر.

القصة هي أكثر الفنون قدرة على "تجسيد إشكالية الصراع الحضاري، إذ تتيح الفرصة لصوت "الأنا" للتعبير عما يضطرم في الأعماق من قيم وأفكار، تعنى بنقد الذات والآخر معا، عبر عملية الإبداع. و"بما أن القصة تعد من أقدر الفنون على تقديم تفاصيل الحياة بكل حقائقها وأوهامها، بما يتيح لنا دراسة إشكالية العلاقة بين "طرفي الصراع" فيها، إذ تفتح أمام المتلقي طريق فهم الذات والآخر معا، فهي قادرة على نبش الأعماق،وتجسيد الأفكار والمشاعر والأحلام، وطرح ما يعترضنا من إشكالات يعانيها (طرف) في مواجهة (طرف)!!، كل ذلك يفسح المجال لتقديم الرؤية والقلق والإحباط ، فيعكس تطور نظرة المتلقي ويسبر غور تفكيره، مثلما يعكس أوهامه وأفكاره المسبقة، التي كثيرا ما يجد نفسه أسيرا لها[1]". إذن يفسح اتساع الفضاء القصصي المجال أمامنا، كي نتأمل هواجسنا ووجهات النظر المتعددة، التي نواجهها في الحياة ، وتثير أسئلة حول "الأنا" وأزمات تعترض تشكيل الهوية، التي من بينها إشكالية العلاقة مع الآخر، فتبرز التشوه الذي يحاصرنا، مثلما يحاصر الآخر، وبذلك تتغلغل القصة بوصفها الفن الذي يستبطن الأعماق، لتناقش الإكراهات

[1]) الأنا والآخر: المواجهة الحضارية في الإبداع الروائي ص: ١٠٠٩/٢- بتصرف د. كمال سعد محمد خليفة بحث منشور في مجلة البيان العدد (١٣/ج٢)١٤٣٤هـ/٢٠١٣م- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية – جامعة الأزهر- قنا .

التي تعشش في هامش الوعي، فتقتحم المخبوء في تصور الذات والآخر، وبذلك نتعرف على تلك القيود والأوهام، التي قد تحاصر إنسانية الإنسان، وتسقطها في ظلمتها([1])".

من هنا، اكتسبت الدراسة أهميتها،وفاعلية النقاش الذي دار على صفحاتها، لكي نصنع هذه المعادلة الحضارية في العلاقة بين طرفي الصراع، بعيدا عن الأحكام المسبقة،أو الأفكار المعلبة، أو(الأكلاشيهات) المصكوكة مقدما. فالهوية الإسلامية، هي التي صنعت هذا المجد العظيم، الذي أنتج هذه الحضارية الباهرة، والتي علمت العالم كله معنى الإنسانية والرحمة والتعايش والعدالة، وآثرت قيم الخير والحب والجمال في الكون، منطلقة من القيم الربانية البانية.

حاولت هذه الدراسة أن تجيب عن السؤال الملح الذي طرحته هذه الإشكالية، لِمَ هذه المواجهة؟. وما طبيعتها؟ ووجهة نظر الرؤية الإسلامية في طرح هذه الصراعات عبر الأعمال الأدبية؛ لتقدم لنا حلولا ولو مبدئية للتعامل مع هذه القضية برؤية كانت تحكمها أيديولوجيات ربما لم تعرف طبيعتها طريقا إلى البنية المعرفية، والرؤية الفكرية المنبثقة عن الإسلام بوصفه العقيدة البانية، والمُشَكِّلة للقيم الحضارية، التي تسعى إلى استكناه كل مفردات هذه الكون، في المنظومة التي خُلِقَ من أجلها. البنية الثقافية المعالجة لقيم الخير والحب والجمال، التي تسعى لإشاعة الرضا العام والتآلف والإخوة الإنسانية والتعايش في هذا الكون، والتي تحقق الوظيفة الربانية التي خلق الإنسان من أجلها وهي خلافته في الأرض، وعمارتها بقيم ومبادئ، ومنظومة أخلاق تضمن السعادة لكل سكان الكرة الأرضية.

[1]) إشكالية الأنا والآخر ص١٤،١٥ د. ماجدة حمودة عالم المعرفة. ع٣٩٨ مارس٢٠١٣م . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت .

تحاول الكاتبة رصد مشكلة الإرهاب في المجتمع سواء العربي الإسلامي أو الغربي المسيحي، وتؤكد أنها امتداد للصراع الفكري والثقافي والسياسي بل والعقيدي، الذي تمتد خارطته من الاستعمار في أوائل القرن التاسع عشر، والذي يتواصل حتى يومنا هذا وبأشكال وصور مختلفة !! كلنا شركاء في تكريسها وانفجارها في واقعنا بهذا الشكل الذي جعلها تستفحل في بلداننا، وتكاد أن تفتك بكل مقومات الحياة في العالم كله؛ لأننا نحن وهم؛ عربا وإفرنجا، لم نكن يوما حريصين على أن نجد مساحات أو جزر وسطى للتعايش، والسلم، والتعاون، والوئام!! الذي يطرحه طرف ، ويتلقاه الطرف الآخر بتوجس وحذر، بل وباستخفاف، وربما برفض واستنكار !!.

حاولت الكاتبة أن تشكل عبر قصتها هوية هذا الصراع وأدواته، عبر تقنيات فنية ربما بسيطة، وقد تصل إلى حد السذاجة، التي تكشف عن خبرة متواضعة في توظيف هذه الأدوات!!، ورغم ذلك أنجزت مشروعها الإبداعي على نحو أبرز وجهي الصراع، ومكنت لعنفوانه وتفاعله، على النحو الذي أنهك طرفيه، وكشف عن رعونة واستهتار بالإنسان، وكينونته في الحياة، ودوره الفاعل في عملية البناء والإنجاز الحضاري. من هنا، شرعت القاصة في بناء قصتها أن تؤصل لفكرة وجود تيار ثالث، طريق آخر، غير طريق الصراع والترصد والتوجس والكراهية، طريق التعايش والبحث عن مساحات أو جزر وسطى–كما قلنا– للتعايش والتعاون والتكامل والبناء، مساحات للتفاعل والانسجام!! انطلاقا من الرؤية الحضارية التي أرساها القرآن الكريم في قوله تعالى:"**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴿١٣﴾**"[1]. من هنا،

[1]) سورة الحجرات الآية : ١٣ .

كانت هذه الفكرة الجديدة في معالجة مثل هذه القضية في عمل إبداعي الدافع الأكثر أهمية للدراسة. فحاولت– عبر عملية التحليل والنقد– أن أكتشف الطريق نحو بلورة الصراع في وجهيه العربي الإسلامي والغربي غير المسلم في القصة، ثم الكشف عن طاقات ومقومات البنية الحضارية للتيار الثالث، أو مساحة التوافق الإنساني والحضاري والتفاعل بين ما هو عربي مسلم، وما هو غربي مسيحي، في بناء مشروع يرفع شعار التعايش والتعارف بكل مقتضياتهما الحضارية، في عالم تسوده قيم الحب والخير والعدل والمساواة. وهذه في رأيي أمارة البكارة والجدة في التجربة الإبداعية لدى القاصة آمنة بنت منصور.

تلك مهمة الدراسة، ومشروعها الفكري الذي تؤصله عبر المقاربة التحليلية والنقدية لكل مفردات العمل الأدبي، والكشف عن وسائطه وأدواته التي وظفتها الكاتبة في تشكيل فضاءها القصصي عبر عدة محاور، طرحت رؤيتها فيما قدمته بين يدي هذه الدراسة، ثم تناولت الصراع بين تياريه المختلفين: الأول: الصراع: افتراع وتباين!!. الآخر: الصراع :التئام وانسجام. ثم خلصت للخاتمة،التي سعيت فيها لبلورة عدة أفكار استنتجتها من خلال عمليةالتواصل مع الفضاء الإبداعي؛شكله ومضمونه.

بين يدي الدراسة

تحاول الكاتبة الجزائرية آمنة بن منصور[1] أن توظف أدواتها الفنية في صياغة هذا الفضاء الإبداعي الذي يقف أو يتأرجح بين ما يسمى القصة الطويلة أو الرواية القصيرة، وهي ما تسمى بالرواية القصيرة، "وهي ما تقع في

[1] آمنة بن منصور: كاتبة وأستاذة أكاديمية جزائرية؛أستاذ الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية في جامعة تلمسان الجزائر، وأستاذ محاضر في المركز الجامعي، عين تموشنت– الجزائر. لها الكثير من البحوث والدراسات في الأدب الأندلسي. من أهمها: المعتمد بن عباد: شاعر المجد والانكسار، والقصيدة الأندلسية : صدى الإنجازات والانتكاسات. وأسلوب المناظرة الأدبية بين الإقناع والإمتاع. وتفاعل القصيدة الأندلسية مع الحياة الدينية.وغيرها من البحوث.أما في مجال إبداع القصة، فلعلها (ذكريات جبل طارق)باكورة نتاجها الأدبي.

المنطقة الوسط..حيث اتساع المدى وكثرة الشخصيات، وهي تقترب من القصة القصيرة في كونها تعتمد على الحدث واحد يتطور[١]"، إذ يتزاحم متن قصتها **(ذكريات جبل طارق[٢])** بالأحداث والشخوص على غير عادة البناء الفني للقصة القصيرة، التي تتخذ من الوجازة والكثافة طبيعة لتشكيل فضاءها الفني، وهي تتماس مع التاريخ بوصفه "مصدرا خصبا وثريا من مصادر إبداع الأدب، بحيث يهيئ المبدعين للانطلاق نحو عالمه، وسبر أغواره، فتضحى أحداثه حية ونامية، وشخوصه متفردة، وإن كانت ترتبط في كنهها بالأحداث التي ولدت من خلالها، فعبقرية الأديب؛ القاص أو الروائي الذي يلجأ إلى ذلك المعين الثر والفائض بالأحداث والشخوص (التاريخ)، تكمن في قدرته على منح شخوصه أو نماذجه الاجتماعية التاريخية، تجسيدا إنسانيا حيا[٣]". فمن ثم، تصدر الكاتبة قصتها (ذكريات جبل طارق) بعنوان يشدنا بسبب ما إلى واقعنا التاريخي، الضارب بجذوره في وجداننا العربي والإسلامي، إذ يمثل جبل طارق والبطل المسلم (طارق بن زياد) قيما حضارية وإنسانية في الوجدان أو الذاكرة العربية والإسلامية، ما يمكننا أن ندعوه بلغة النقد الأدبي (تناصا) إبداعيا، كثيرا ما يلجأ إليه المبدع الأدبي/الفني، ويوظفه في تشكيل فضائه الإبداعي. سيما، إذا كانت قيم العمل الأدبي، التي يحاول أن يصدع بها تتصل بالتراث الإنساني والحضاري لأمة ما.. ويحاول على الجانب الآخر (الفني) أن يكسب عمله الصدق والقدرة على الإقناع، والإمساك بالمتلقي إلى الحد الذي ربما لا يستطيع أن يتفلت منه، مهما اتسعت أو تشعبت منافذ التجول ومساربه بين الواقعي

---

[١]) تداخل الأنواع في أدب لطيفة الزيات ص٣٩٥ زينب العسال، الشركة العامة للطباعة، الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتابات نقدية – عدد(١٤٠) نوفمبر٢٠٠٣ م – مصر .

[٢]) قصة قصيرة منشورة في مجلة (الرابطة) ما بين صفحتي (٤٢: ٤٨) على عمودين– العدد (٦٠٢) ربيع الأول ١٤٣٨هـ / ديسمبر ٢٠١٦م – رابطة العالم الإسلامي – المملكة العربية السعودية .

[٣])حركة البطل في الروايةالإسلاميةص:٣٩ كمال سعدمحمدخليفة–دار طيبة للطبع والنشر–أولى–١٩٩٩أسيوط

والتاريخي، الحضاري والإنساني، الفكري والعقيدي، الوجداني والإيديولوجي. فعملية التناص هذه تمنح الأديب كل هذه الطاقات والقدرات على الحركة والتحليق في عوالم متعددة، ومتسعة الآفاق، وتهيئ لعملية التفاعل الإنساني والحضاري بين ما هو قديم وما هو واقع، عبر العلاقة التي تصنعها النصوص المتعددة في المتن الروائي.

تلجأ القاصة في تشكيل البناء الفني لقصتها على صيغة سردية؛ صيغة (الذكريات أو المذكرات أو اليوميات)، وهي تيمة روائية أكثر منها تقنية إبداعية للقصص القصيرة إلى حد ما، لما لهذا الأسلوب من قدرة على "تسجيل ما يقع في القصة من وقائع وأحداث أو حتى ملاحظات حياتية، سواء كانت مهمة أو تافهة، إلا أنها في النهاية تصنع خلال تعالقها عالما زاخرًا بالمشاهد والرؤى، تسهم إلى حد كبير في تشكيل هذه الشخصية؛ بطل "المذكرات أو اليوميات" أو الراوي. فيحدث لدينا ما يسمى بـ "الانطباع" الخاص عن هذه الشخصية أو الراوي. فعندما يلجأ القاص إلى مثل هذه التقنية الأسلوبية في الإبداع، يقدمها في صورة اعترافات، يفترض فيها الصراحة والصدق. فعملية الإبداع غالبا ما تكون عملية إفضاء لما هو كامن في الذات، أو ما هو مختزل في الشعور طيلة فترة الحياة، ويتحرج الرَّاوية من ذكره كبعض المواقف أو السلوكيات.سيما إذا كانت مخزية فيسكت عنها؛ لأن كتابة القصة أو الرواية عبر هذه التقنية الإبداعية، تمنح القاص القدرة على التخلص من المعاناة التي يحياها؛ لأن حياة البطل أو الراوي لم تكن حياة عادية مثل كل البشر، فيسترسل للحديث عنها في شكل سردي تقليدي. وبما أن حياته تتصف في كثير من الأحيان بالثورة والأرق، فهي غير مستقرة؛ لذا تحتاج إلى هذا اللون الإبداعي، حتى يتمكن من الإفضاء بكل ما يستجد فيها من أحداث، قد لا تتوفر له في لحظات الإلهام، وهنا تنتفي عن العمل الإبداعي خاصيتي "الصراحة والصدق" وهما العمود

الفقري؛ لإنجاح مثل هذا اللون من الإبداع؛ لأن السرد القصصي لأحداث هذه القصة قائم على إيهام القارئ ، بأن ما يحدث أو يجري من أحداث، هو واقع حقيقي وحادث بالفعل، ولذا نجد الأسلوب الساطع والأمثل في عملية الإبداع، هو أسلوب الراوي المتكلم؛ العالم بكل شيء، الذي لا يتدخل في العملية الإبداعية إلا بالقدر الذي يسمح له بتنظيم الأحداث، وترتيب الأدوار، وتشكيلها على النحو الذي يجعل منها عملاً فنيًا ناجحًا[1]". كما أن هذا الأسلوب يمكن أن يطرح أمامنا هوية الزمن الذي دارت فيه وعبره رحى الأحداث، وتحركت عبر فضائه الشخصيات على النحو الذي يمنحنا انطباعا أكثر بالواقعية والإقناع بأن ما يجري حقيقة وإن كانت تتردى رداء الخيال!! إذ الكاتبة تصدر قصتها بلافتة زمنية تؤطر للزمن الذي تجري في نهره الأحداث هكذا: [خريف٢٠١٥م]

"مر أسبوع كامل على الحادث..حادث الانفجارات التي هزت باريس.. وقف هشام أمام مركز (باتاكالون) للفنون..وضع بعض الزهور.. ثم ابتعد قليلا. هشام شاب من أصول مغربية، في الخامسة والعشرين من العمر، معتدل القامة، أسمر البشرة والعينين، لم يكمل دراسته..كانت الثانوية آخر عهده بطلب العلم..اتجه للتجارة الحرة ليؤمِّن مصروف جيبه، ويحفظ عن السؤال ماء وجهه.

مرت دورية للشرطة..طلبت منه الابتعاد عن مسرح الجريمة..فالتحقيقات لا تزال متواصلة منذ الحوادث الأخيرة التي هزت فرنسا،خاصةخلال هذه السنة أصبح المغتربون العرب يعانون أكثر من أي وقت مضى..يعانون من العنصرية والملاحقة ونظرات الحقد..لقد بات العربي المسلم عند أكثر الفرنسيين عنوانا للتطرف والتشدد، يمكن أن ينفجرعليهم في أية لحظة، لهذا كانوا

[1]) دراسات في النقد الأدبي: نقد القصة. ص١٠٨،١٠٩. كمال سعد محمد خليفة–مطبعة الكامل– أولى–١٩٩٩م– أسيوط.

يتحاشون تجمعاتهم أو حتى الاحتكاك بهم. فالمقدمة هذه التي تصدرت بهذه التقنية التاريخ الذي توظف خلاله الكاتبة تقنية السرد الآني[1]: وهو سرد في صيغة الحاضر المعاصر لزمن الحكاية، أي أن أحداث الحكاية وعملية السرد تدور في آن واحد"، تحاول القاصة عبر هذه التقنية أن تضعنا ومن الوهلة الأولى في قلب الحدث، وتطرح رؤيتها للمشكلة/القضية الأم؛ مشكلة الإرهاب وما يتفجر حولها من مشكلات كالتعصب والكراهية والحقد الأعمى الذي ربما يؤدي إلى تفاقم مشكلات أكبر تؤثر على التعايش وتقضي على كل أمل أو إمكانية في التعاون المثمر بين الشعوب في إدارة الحياة، أو يفقدنا البحث عن المساحات المشتركة لإنتاج حياة كريمة.

من هنا، يهرع البطل بعد أن لامس ذلك الواقع وعايشه على النحو الذي اكتوى بناره في نهاية القصة، ومن ثم يفتح قوسا جديدا للحياة، يشرع باب الأمل الذي يحدوه عندما يعود إلى موطنه الأصلي (مسقط رأسه)الذي يستدرك حقيقته بعد رحلته المضنية في البحث عن حل لمعضلة الصراع الحضاري، سيما عندما يئس من وجود ثغرة في هذا الحائط، أو يجد مساحة تسمح بوجود هواء نقي يمكن ألأن يتنفس عبره الحياة في واقع مختلف وجديد!! فيتحفنا بهذه الترنيمة–لو جاز التعبير–تكشف عن مكنون نفسه ويقين تفكيره ويعبر عن صدق عاطفته وإحساسه المترع بالحب لوطنه:ما أجمل الوطن!!. ورائحة

[1]) اللغة وتقنيات الإبداع القصصي ص٦٢، د. كمال سعد محمد خليفة – جامعة أم القرى– مركز بحوث اللغة العربية – أولى – ٢٠٠٩/ ١٤٣٠هـ – مكة المكرمة . المملكة العربية السعودية .

الوطن!!. وهواء الوطن!!، فيه وحده تشعر بوجودك. وبإنسانيتك..وبحريتك[١].. رغم الفقر والظلم والألم..لا سقف يحتويك غيرالوطن([٢]).

أما في المقطع الثاني وهو الذي يصدره بلافتة كذلك تضعنا في زمن متقدم على زمن الحكي أو القص، الذي جاء في المقطع الأول، الذي يطرح ما يمكن تسميته بشفرة النص التي تتداعى عبرها مكنوناته ومكتنزاته، وتتفتح أكمام الأحداث وتتنامى عبر تقنيات سردية متتالية .. بلغة سينمائية تحاول الكاتبة أن ترتد بنا إلى مغارات الأحداث، عبر تقنية الارتداد إلى الخلف (الفلاش باك:flash back)، وهو ما يسميه نقاد الرواية "السرد التابع: وهو الذي يقوم فيه الراوي بذكر الأحداث التي حدثت قبل زمن السرد[٣]"، أي يروي القاص أحداثا متقدمة على لحظة الإفضاء هذه .. وهذا ما يصنعه القاص وهو يمارس حضوره الإبداعي من خلف الأحداث، بحيث يعد الراوي أو القاص هو"الصوت العالم بأحوال أبطاله وتفاصيلها، بل والقادر على استنطاق خفايا النفوس، وفضح سلوكها، أو يبرر مواقفها؛ فهو ذات مهيمنة، توجه الأحداث نحو القناعة التي يريد أن يحضرها في ذهن المتلقي، ويتوسل لذلك بضمير الغائب في عملية الحكي، لما لهذا الضمير من رحابة حكائية قادرة على الإمساك بكل

[١]) لو جاءت بغير واو العطف لكان أكثر توافقا ووهجا ورونقا وتدفقا !! من تلك الطاقات التي يضفيها الفن !! فالواو قلقة في موضعها ، وحذفها كان جديرا بلغة الفن وتواتراتها !!

[٢]) مجلة الرابطة: القصة ص:٤٢-سابق. جاءت عبارة القاصة خالية تماما من علامات الترقيم!! ولعل هذا ما تعودته الكاتبة ربما لعدم معرفة بخصائص هذه اللغة، أو عدم وعي بخطر هذا اللغة في داخل لغة الإبداع، إذ تسهم هذه العلامات وتقدم وظائف ربما لم تستطع اللغة الكتابية تقديمها إذ العلامة تختصر كلاما كثيرا يضيق عنه المتن الإبداعي، كالتعجب والاستفهام والنقطة والفاصلة المنقوطة وغير المنقوطة، مما أهملته الكاتبة تماما، وما وضعته منها جاء في الغالب في غير موضعه الحقيقي!!. إن علامات الترقيم-كما قلنا- لغة داخل اللغة، وتكشف بكثافة عن لغة الوجدان والعواطف والأحاسيس وتقديمها بدرجة أو بأخرى، مما يكشف عن طبيعة الفن وجوهره ووهجه، بالقدر الذي يسهم إلى حد كبير في تلوين التجربة وصدقها الفني.

[٣]) دراسات في النقد الأدبي: نقد القصة . ص: ٧١ .

العناصر، التي تتحرك داخل الإطار القصصي، فهو صوت سلطوي، يتحسس القارئ اليقظ وجوده في كل وحدة سردية أو حوارية، لكنه صوت ذكي، يجنب نفسه نفور القارئ، فيتحايل على هذا الأخير بكل أفانين الكتابة، والإيحاء حتى يخضعه في النهاية للموقف المروم، بلغة قادرة، ووعي وذكاء بوظائفها المختلفة، حتى يستطيع أن يسلب القارئ، أو المتلقي لبهما، ويحملهما على متابعته. فيأخذهما إلى جانبه، ويستثير عواطفه، ويسيطر على كل حواسهما، فيسير بهما نحو الاتجاه الذي يريد!![1]".

من هنا، وجدناه يسرف في مقطعه الأول في توظيف الفعل الماضي والذي يستلزم التحدث بضمير الغائب حتى ولو كان الفاعل حاضرا أو ماثلا في المشهد كالبطل (هشام)!! إذ تتالى الأفعال الماضية: (مرَّ/هزت/وقف/وضع/ اتجه/مرَّت/طلبت/ أصبح /بات/كانوا/...) تضع الحدث وبطله في مشهد الغياب، ومن ثم يصبح الضمير الغائب هو المروم في عملية الحكي حتى ولو كان وجوده ضمنيا أو مستترا، ولم يظهر صراحة!!. "إن هذا الضمير (الغائب) يستدعي كثيرًا عند توصيف الصور البيئية، التي تحدد ملامح المكان التي تجري فيه الأحداث، من شواهد، أو مشاهدات حياتية، أو ملامح مفردات الكون التي ترسم الصور الحياتية التي تشارك في تشكيل ملامح الحدث أو الشخصية، أو حتى الزمان الذي جرت فيه هذه الأحداث، "فإن غاية الرواية بوصفها تعبيرًا فنيًا، هي تجسيد الحياة الإنسانية على نحو أعمق وأخصب"[2]. يُقْدِم الأدباء على اختلاف توجهاتهم الإبداعية لخلق نماذج متعددةفي قصصهم يوظفون فيها خلال إبداعهم ضمير الغائب، "لما لهذا الضمير من رحابة حكائية. كما قلنا. فلذا نجده من أكثر الضمائر استعمالاً لدي المبدعين،كما أنه في–الوقت

(1) دراسات في النقد الأدبي : نقد القصة . ص : ٣٥ .

(2) قراءة الرواية ص: ٢١٦ د. محمود الربيعي–دار المعارف– ثانية – ١٩٧٤م – مصر

نفسه–أكثر استقبالاً لدى المتلقين،وأدناها إلى الفهم لدى القراء.وذلك لعدة أسباب منها[1]:

أ) إن ضمير الغائب يعد وسيلة صالحة لأن يتوارى وراءها السارد، فيمرر ما يشاء من أفكار، وأيديولوجيات، وتعليمات وتوجيهات، وآراء، دون أن يبدو تدخله صارخاً أو مباشرًا، إن السارد يغتدي أجنبيًا عن العمل السردي، وكأنه مجرد راوٍ له، بفضل هذا الـ "هو" العجيب.

ب) يجنب اصطناع "ضمير الغائب" الكاتب السقوط في فخ (الأنا) الذي قد يجر إلى سوء فهم العمل السردي، وأنه ألصق بالسيرة الذاتية منه بالرواية الخالصة ، وذلك على الرغم من أن الكاتب المحترف يُعنِتُ نفسه في محاولة فصل (الأنا) السردي عن (الأنا) الكاتب، ولكن ذلك لا يكون إلا بمقدار.

ج) يفصل اصطناع "ضمير الغائب" زمن الحكاية، عن زمن الحكي من الوجه الظاهرة على الأقل، مثل ما يحدث في إبداع الروايات التاريخية، وذلك حيث أن الـ"هو" في اللغة العربية يرتبط بالفعل السردي العربي "كان" الذي يحيل إلى زمن سابق على زمن الكتابة..فإن هذا الزمن يظل في ظاهره، وكأنه مفصول عن الكاتب، سابقُ عليه، مع أنه مجرد خدعة سردية، وتقنية روائية للتعامل مع الزمن الذي هو زمن الكاتب وحده..وفي هذه الخدعة السردية ما فيها من حمل المتلقي على التصديق،بحدوث ما يجري، وأنه أدخل في التاريخ والواقع من حيث هو مجرد نسيج لغوي،وبمقدار ما يبتعد عن الواقع والتاريخ، يقترب من عالم الأسطورة،وعطاء الخيال.

د) إن اصطناع (ضمير الغائب) في السرد يحمي السارد من "مظنة الكذب " يجعله مجرد حاك يحكي، لا مؤلف يؤلف، أو مبدع يبدع، قد يتولد عن هذا

([1]) في نظرية الرواية ص: ١٧٦، وما بعدها، الدكتورعبد الملك مرتاض،بتصرف.المجلس الوطني للثقافةوالفنون والآداب عالم المعرفة – عدد٢٤٠– ديسمبر ١٩٩٨م– الكويت .

الاعتبار انفصال النص عن ناصِّه، وذلك بحكم أنه مجرد وسيط أدبي ينقل للقارئ ما سمعه، أو علمه من غيره، فهو ببعض هذا السلوك، ينتقل من وضع السارد الكاتب إلى وضع السارد الشفوي(الراوي).

هـ) إن استعمال (ضمير الغائب) يتيح للكاتب الروائي أن يعرف عن شخصياته، وأحداث عمله السردي كل شيء، وذلك على أساس أنه قد تلقى هذا السرد قبل إفراغه على (الورق)، فهو هنا يدفع بالأحداث وشخصياتها نحو الأمام؛ فيكون وضعه السردي قائمًا على اتخاذ موقع خلف الأحداث التي يسردها، أو قل: الأحداث التي يزج بها تلقاء الأمام، بما أنه أشد إلمامًا ، وأكثر إطلاعًا عليها؛ فهو بها إذن خبير، وبتفاصيلها عليم؛ وذلك بما أنها مجرد أدوات ورقية، أو سمات صوتية طائرة في الفضاء، ولا حول لها ولا طول، تأتمر بأمره، ونزدجر لزجره، وتندفع لدفعه .

تدور هذه القصة حول أسرة مغربية كانت تعيش في مدينة تسمى (جبل طارق)، تلك المستعمرة البريطانية، وهي تتماس وتشتبك مع أنماط من البشر (أشخاص) ينتمون إلى ثقافة وحضارة وعقيدة ورؤية وعرقا، تختلف عن ثقافتهم وحضارتهم وعقيدتهم ورؤيتهم وأعراقهم، يعيشون معهم على هذه الأرض التي استلبت يوما ما من وطنهم وتاريخهم، وحضارتهم ومجدهم الأندلسي الذي ظل قائما ما يزيد على الثمانية قرون في هذه البلاد التي يحاول هؤلاء المحتلون محو كل مظاهر الحضارة والهوية الإسلامية لهذه البلاد ، وكذلك يسرقون كل أمارات الحضارة الإسلامية ينسبونها إلى وجودهم!!، وحتى البشر، يتعاملون معهم على أنهم أعداء ينبغي أن يغادروا هذه البلاد إن لم يكن طواعية، فكل الأساليب مهما كانت قذرة، تصبح متاحة للخلاص من هؤلاء المسلمين الذين يرهبونهم ويفجرون في تجمعاتهم المجتمعية والمؤسسات الثقافية، ويسعون في تدمير حضارتهم.

القصة من الفنون ذات الخصوصية الإبداعية التي ربما تختلف في كنهها وحمولاتها الفكرية عن غيرها من فنون الإبداع الأُخر، فهي"انفتاح على عالم جديد .. يُحَلِّق في فضاءات أدبية وفكرية، تتماس وتشتبك مع الحياة بامتلائها وحيويتها. ومن ثم، فهي تقدم–إن لم تكن تصنع أو تضيف– خبرات وتجارب إنسانية وحضارية، تضاف إلى خبرات متلقيها"([1]). إذن القصة بوصفها فنا حياتيا .كما يدعي البعض–وبعض من ادعائهم حقيقة–تحمل عبق الإنسان، تحمل رائحته الذكية، إنها أكثر الحالات صفاءً وانسجاما مع تفاصيل الحياة .. هي الإنسان، هي كتاب الحياة الأكثر إضاءة ووضوحا، إنها السراج في الأعماق المظلمة.. إنها تقدم الإنسان إلى نفسه، تسعى للدفاع عن حريته، وعن حقه في حياة لا توصف بأقل مما هيأه الله (ﷻ) لهذا الكائن!!. "تتشكل خيوط القصة لتؤرخ إنسانا في موقف، تؤرخ موقفا في إنسان، تؤرخ المجد وكذلك تؤرخ الفشل .. كل هذه الصيحات المدوية في عالم الإبداع الأدبي، هي دموع تنهمر من ضمير الإنسان، ومن روحه، تحاول أن تلفت النظر إلى رؤية هذا الإنسان، إلى اللحظات القصيرة التي تحمل أحداثا لا يلتفت إليها أحد. أجل ، فإن وظيفة القصة تكمن في مقدرتها على أن تجعلك تلتفت لوقائع مرت، وفاتك أن تتأملها، وهي بذلك تمنحك هذه الفرصة الذهبية مجددا..الكلمات الإبداعية هي القناديل الكبرى، وهي الرشيد إلى نهارات لا تنتهي من الضوء"([2]). والقصة الفنية بهذه الحيوية والفاعلية باستطاعتها أن تكتنز بالأفكار والفلسفات، والقيم الفكرية والدينية التي تمثل إيديولوجيا لأشخاصها المختلفين أو المتصارعين عبر فضائها الإبداعي، الموار بالحكايات والأفكار والعلائق والتصورات المتواجهة،

[1]) حساسية الرواية وذائقة المتلقي ص:١٠ عبد الباقي يوسف– كتاب"المجلة العربية"– رقم(١٨٢) صفر١٤٣٥هـ/يناير ٢٠١٢ م – المملكة العربية السعودية .

[2]) حساسية الرواية وذائقة المتلقي ص:١١ : ١٩ مواطن متفرقة .

بوصفها "كتاب حياة، أُترعت صفحاته بالفلسفات والرؤى التي تكسبها فرادة وتميزا، ربما يستأنس متلقيها أو يتعاطف مع أي منها، أو ينفر ويصطدم ببعضها. ومن هنا، وجدنا أن البعد المعرفي للمجتمع؛ أي مجتمع، يحاول مبدعوه أن يعالجوا إشكالاته أو يفكوا الاشتباك الذي ربما أشعلته الخصومات السياسية أو الاجتماعية ولا يمكن لفن ما أن يلم بأطراف معالجاته، ونجاعة تدخلاته، إلا بفن القصة، لما لها من سطوة جمالية – إن صح التعبير – ربما لم تتوفر لغيرها من الفنون، وربما يتوفر على استكناهها، أو الإلمام بقيمها من المجتمع ، شرائح متعددة الثقافات والفكر.. والحياة ..

منذ زمن طويل ربما يربو على القرنين، ونحن نعاني من جراء موجات الاستعمار المتتالية لبلادنا ومجتمعاتنا، ما خلق لدى مجتمعاتنا العربية إشكالية تتبلور في ما يمكن تسميته بـ "العداء أو الصدام الحضاري"، بين حضارتين؛ عربية وغربية؛ مستعمِر(فاعل) ومُستعمَر (مفعول به)، بما يمثله كل من هذين المصطلحين– إن جاز التعبير– من معاناة ترسبت توابعها على امتدادا هذا الزمن في ذاكرة (المفعول) من جراء هذا (الفاعل) ، الذي يرمز إلى السطوة والطغيان والنهب والسلب، والحقد والكراهية، وربما محاولة تعمد الانسلاخ من الهوية. ومازالت هذه الإشكالية قائمة حتى يومنا هذا، وما يزال الحبل طويلا وممتدا على الجرار–كما يقولون–حتى بعد أن غادرنا أو أرغم على المغادرة، استأنف غطرسته القديمة، ووصمنا نحن العربي والمسلم بالإرهاب، سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر المشئومة، وانتشار الانفجارات في أماكن مختلفة من خارطة العالم الغربي، الذي ما يزال يرانا "الخطر الأخضر" على تقدمه وحضارته!!. وللأسف كثير من أبنائنا سواء من العملاء أو المغرر بهم من المتهمين بحسن النوايا، أو الطامعين في الحصول على فتات سلطة جرباء لم تثمر سوى الحنظل المر!!. انساقوا خلف طموحاتهم العفنة ولبوا نداء من

نصبوا لهم الفخاخ وسقطوا وهم مغمضو العيون، معصوبو العقول، في بئر التطرف السحيق!!، ووصموا دينهم الذي يرفعون رايته بكل ما هو مشين وبذيء!! مما نرى ونسمع ونعاني، ونكتوي بناره في مجتمعاتنا التي أردناها يوما حرة قادرة على إدارة شئونها، بعيدا عن التخلف والهمجية والفوضى والانهيار الأخلاقي!!. القصة هي أكثر الفنون قدرة على "تجسيد هذا الصراع، إذ تتيح الفرصة لصوت "أحد طرفي المواجهة" للتعبير عما يضطرم في الأعماق من مخاوف وآلام وأفكار، فتنطلق في نقد الذات والآخر معا"[١]. "وكي لا يبدو هذا القول نوعا من جلد الذات، يحسن أن نشير إلى أن النظرة الضيقة، يعانيها كل إنسان جاهل، في أي زمان ومكان، فمن يفتقد الثقافة يفتقد سعة الصدر، أي روح التسامح، واحترام الرأي المختلف[٢]". و"بما أن القصة وكما قلنا تعد من أقدر الفنون على تقديم تفاصيل الحياة بكل حقائقها وأوهامها، مما يتيح لنا دراسة إشكالية العلاقة بين "طرفي الصراع" فيها، إذ تستطيع أن تفتح أمام المتلقي طريق فهم الذات والآخر معا، فهي قادرة على نبش أعماقنا وتجسيد أفكارنا ومشاعرنا وأحلامنا، وطرح ما يعترضنا من إشكالات تعانيها (هذا الطرف) في مواجهة (ذاك الطرف)،كل ذلك يفسح المجال لتقديم اضطراب رؤيتنا وقلقنا وإحباطنا، فيعكس تطور نظرتنا إلى ذواتنا وإلى الآخرين، مثلما يعكس أوهامنا وأفكارنا المسبقة، التي كثيرا ما نجد أنفسنا أسرى لها.إذ تشكل أسس تصرفاتنا وعلاقتنامع الآخر المواجه لنا فكريا وثقافيا وحضاريا[٣]". إذن اتساع الفضاء القصصي يفسح المجال أمامنا ، كي نتأمل هواجسنا ووجهات

---

[١]) الأنا والآخر: المواجهة الحضارية في الإبداع الروائي ص : ١٠٠٨، ١٠٠٩ د. كمال سعد محمد خليفة – بحث منشور في مجلة (البيان) ع١٣ ج٢–كلية الدراسات الإسلامية والعربية– جامعة الأزهر–٢٠١٣م– قنا.

٢) الأنا والآخر: المواجهة الحضارية في الإبداع الروائي ص : ١٠٠٩ .

[٣]) الأنا والآخر: المواجهة الحضارية في الإبداع الروائي ص : ١٠٠٩ .

النظر المتعددة ، التي نواجهها في الحياة ، وتثير أسئلة حول (هذا الطرف) وأزمات تعترض تشكيل الهوية، التي من بينها إشكالية العلاقة مع (ذاك الطرف)، فتبرز التشوه الذي يحاصرنا، مثلما يحاصر الآخرين، وبذلك تتغلغل القصة في الأعماق، لتناقش الإكراهات التي تعشش في خارج الوعي، فتقتحم المخبوء في تصور الذات والآخر، وبذلك نتعرف على تلك القيود والأوهام، التي قد تحاصر إنسانية الإنسان، وتسقطها في ظلمتها([1])". من هنا، كان لابد من معالجة هذه الإشكالية بطريقة ما، وعبر تقنية إبداعية معينة نابعة من فكر المبدع وثقافته وقيمه وإيديولوجيته..فكانت كثير من الفنون القصصية التي جسدت هذه المشكلة، وعالجت هذه الجدلية التي عشنا معاناتها طويلا، وها هم كثيرون من يقدمون أيديهم لهذا الطرف أو ذاك، حتى نتجاوز هذه العقبة وننطلق في أفق يجمعنا على الاحترام لقيمنا وديننا وأوطاننا وثقافتنا .. حاولت بعض الروايات العربية[2] أن تجسد الرغبة في فهم الآخر، الذي بدأ في صورة معادية(الغربي المختلف)،ممن ارتكبوا حماقات الاستعمار لأوطاننا،من أصحاب الإيديولوجيات أو المذهبيات الفكرية، التي تتصادم مع قيم مجتمعنا، وإسلامنا، بوصفه الدين؛ منتج الحضارة الربانية؛ ساطعة النور وبانية الحياة والعمران، الذي يحرص (الآخر)على إخماد جذوته، في أفق المجتمع الإسلامي، أو التصور الحضاري لرؤيته لهذه الحياة، وتفكيك بنيته الحضارية، التي تجعل من الإنسان المسلم، ومشروعه الحضاري الإنساني ،المنطلق من التصور الإسلامي أحد أهم أركان بنائه!!..

[1]) إشكالية الأنا والآخر ص: ١٤ ، ١٥ د . ماجدة حمودة . عالم المعرفة. عدد (٣٩٨) مارس٢٠١٣م . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت .

[2]) منها روايات: تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة رافع الطهطاوي، وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، والحي اللاتيني لسهيل إدريس، وأصوات لسليمان فياض، وغيرها .

دراستنا تعنى بتتبع النماذج (الشخصيات) المتقابلة فكريا وإيديولوجيا، والتي تتخفى خلف عقيدتها ، والتي تتخفى خلف عقائد وأيديولوجيات فكرية، وهي تواجه أو تصطدم بالأنماط/الشخصيات التي تحمل تلك القناعات الإيمانية والحضارية، وتؤمن بها؛ يقينا، وإدراكا ومنهجا، وسلوكا. وهنا وجه الاختلاف أو الجدة–إن صحت العبارة –بعيدا عن الانبهار أو حتى الإحساس بالدونية لدى المسلم أو الغربي، من منطلق هذه الرؤية الخاصة، حتى نعيد الثقة في أنفسنا، فلو لم يكن بإمكاننا هزيمة هذا الآخر المتصادم حضاريا وفكريا مع هويتنا الإسلامية عسكريا وسياسيا، فلا أقل من أن نواجهه حضاريا، وفكريا، وقيميا، وإنسانيا وعقيديا! ولعل ذلك ممكنا ما خلصت نوايانا لذلك. من هنا تتضح الفكرة من تناول الشخصيات بالتحليل والنقد لنتعرف على هوية كل طرف من أطراف الصراع على كافة مستويات الحركة عبر الفضاء الفني للقصة؛ حقل الدراسة .

الصراع : افتراع وتباين

الشخصيات في الإبداع القصصي سيما في روايات الصراع أو المواجهة الحضارية –وليس غيرها– هي التي بإمكانها أن تبرز هذه الطاقات الفكرية والألق الإبداعي لوجهي الصراع أو طرفي المواجهة؛ لتجسيد الصراع بين طرفيه في هذه الشخصية أو تلك التي ترمز إلى حضارة معينة أو فكرة معينة أو إيديولوجية، أو مذهبية فكرية، أو تصور عقيدي لدين ما.

تعد الشخصية حجر الزاوية في القصة، إذ أنها تلعب دورًا رئيسا في بنائها، بما أنها "مركز الأفكار، ومجال المعاني التي تدور حولها الأحداث، وبدونها تضحى الرواية ضربًا من الدعاية الفجة المباشرة والوصف التقريري، والشعارات الجوفاء، الخالية من المضمون الإنساني، المؤثر في حركة

الأحداث".[١] ومن ثم، يصبح الروائي الحقيقي هو الذي يتمكن من بناء (خلق) الشخصيات، وأن يتحدث على لسانهم، وأن يعمل الترتيبات لنا، لكي نصغي حينما يتحدثون إلى أنفسهم، كما أنه يستطيع الوصول إلى مناجاة النفس... ويستطيع أن يكشف عن اللاشعور، في دائرة اختصاصه ويرينا علاقة اللاشعور بالمناجاة فهو يسيطر على كل الحياة الخفية للشخصيات)[٢]. والشخصية، بوصفها نموذجاً بشرياً، مُنتجاً من الواقع (الحياة)، تتفاعل بما مُنِحَتْهُ من معطيات حياتية (جسدية، ونفسية، وعقلية) مع هذا الواقع بمختلف إطاراته (فكرية، وعقدية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية)، أو مستدعاة من التاريخ الغاص بالنماذج المختلفة في توجهاتها، أو ما خلفته من تراث فعلى، حكائي يجعل منها عنصرًا، ذا أهمية بالغة في إبداع العمل الروائي، لاسيما إذا وعينا "أن الرواية هي فن الشخصية بالدرجة الأولى، وأنها لا تحيا بغير هذه الشخصيات الحية النشطة".[٣] فالشخصية إذن، تقوم في القصة، مقام العضلة المحركة (القلب) بالنسبة لبقية الأعضاء في الجسم. إذن فهي في القصة فاعل، يؤثر في الحدث، تدور حوله بعض أجزاء من القصة، وتتحدد ملامحه عن طريق "وصف سلوكه، ووظيفته الاجتماعية، وخصائصه النفسية الجسمانية، وذلك من خلال حديثه، أو من خلال وصف الراوي له بصورة محددة ".[٤]

بهذا التصور النقدي للشخصية في الرواية ، يصبح هذا النموذج البشرى نموذجًا يحقق من ورائه المبدع "تقديم صورة متكاملة الأبعاد لشخصية إنسانية حية تتمثل فيها مجموعة من الفضائل،أو النقائص، كانت متفرقة من قبل في عالم التجريد، أو في مختلف الأشخاص، وليس لهذا النموذج قيمة

(١) بناء الرواية : ص ١٠٧ د / عبد الفتاح عثمان – مكتبة الشباب –دت– القاهرة .

(٢) أركان القصة : ص ١٠٣ بتصرف–أ.م. فورستر. ترجمة كمال عياد. دار الكرنك–د ت– القاهرة .

(٣) صورة المرأة في الرواية المعاصرة: ص٩٧ . د/ طه وادي . مركز الشرق الأوسط . د ت . القاهرة .

(٤) قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر ص٧١ د/سمير حجازي، مكتبة مدبولي،١٩٩٠م. القاهرة.

فنية، إلا حين يستطيع الكاتب أن يجعل منه مثالاً ينبض بالحياة، من ثنايا التصوير الفني، حتى يظهر أكثر غنىً في نواحيه النفسية، وأجمل في التصوير، وأوضح في معالمه مما نرى في المجتمع، وهذا النموذج في كل حالاته أكثر إقناعًا، وأعمق وأكمل مصيرًا، من نظائره في الطبيعة"(١)

وحتى تكون الشخصية مقنعة في القصة، لابد أن تلتقي خلالها مجموعة من الفضائل أو النقائص، فهي . شأن طبيعة البشر، وإن كانت تختلف عنهم . فتخطيء، وتصيب، وتعلو وتهبط، ترمز إلى قيم معينة : خيرًا كانت أو شرًا، فهي في فكرها، وتصرفاتها، يحكمها تصور معين أو عقيدة ما، "فالكائن الحي، يقوم باستجابات معينة في ظل وجود دوافع أو توتر، ومع وجود مثيرات أو دلائل ذات أنواع معينة عديدة".(٢) وإذا كانت الشخصية –كما عرفنا– مركز الأفكار، ومجال المعاني التي تدور حولها الأحداث، فلابد أن تستمد هذه الأفكار والرؤى المختلفة في اتجاهاتها، وعاداتها، وتقاليدها، وتفكيرها، وصفاتها، من الواقع الذي تحيا فيه، وإن كانت تختلف عنه "فهي ذات ثراء دلالي، وغنية في جوانبها المختلفة، النفسية والاجتماعية والجسدية، وتمثل نماذج منفردة يضمها الواقع الإنساني...حافلة بالعمل والحركة"(٣) دون الوقوع في دائرة المباشرة ، والسذاجة التي تنتج من تهافت القاص وراء توافه الأمو، من الأفعال والتصرفات الخالية من المعاني للأديب القاصـ خ لال عملية إبداع الشخصية، أن يحذر السقوط والتهافت، فلابد له من "استحضار الشخصية في وجدانه، ينفعل بها، ويستمطر من التصورات الخيالية ما يهيئ الجو لإعادة

(١) النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبيةالمقارنة ص٥ د/محمد غنيمي هلال، دارنهضة مصر،د ت،القاهرة.

(٢)الشخصية في سوائها وانحرافها ص١٠د/مصطفي فهمي(المكتبة الثقافية)ع١٦٣الدار المصرية للتأليف والترجمة، دت مصر.

(٣) بناء الرواية ص ١٠٨ . سابق .

تشكيل (الواقع) من خلال رؤية خاصة، يعبر عنها بالكلمة الصادقة، فيكون تعبيره مليئا بالحياة الدافقة، والحركة السخية، لتبرز الشخصيات حية تعيش واقعها في ساعته، وتؤثر في مجريات التاريخ، وتوجهه، بكل ما أوتيت من عظمة وعبقرية..من هنا يمتد تأثيرها في المتلقي"[1]ويختلف هذا التأثير، قوة وضعفا تبعا لجودة البناء الفني، ومدى قدرة الأديب على الإقناع من خلال التوازن القائم في العمل، بين الشكل والمضمون.. بين الفن والفكر. من هنا، كان اهتمامنا هنا في تتبع الشخصيات على شاطئ الصراع الحضاري بين ما هو عربي إسلامي وغربي مسيحي متغطرس على كافة مستويات أو مسارب الحياة، بحيويتها وامتلائها. إذ الشخصية بما تحمله من أفكار وقيم ومبادئ هي وليس غيرها من أدوات البناء القادرةعلى تقديم هذا التصور أو ذاك!

من هذا المنطلق كان اهتمامنا برصد حركة الشخصيات؛ لنتبين التصور الفكري والحضاري لبناء هذا الصراع، وتشكيل فضائه على النحو الذي يكشف عن كنه هذه القضية، ويعالجها في ضوء الرؤية الإنسانية والحضارية للإبداع الأدبي. ونتلمس خطاها عبر رحلة الإبداع وعيوننا مصوبة نحو هذه الشخوص ونتعرف على هويتها الحضارية عبر شاطئي نهر الصراع المتدفق في فضاء التشكيل الفني لعالم القصة.

أولا: الشخصيات التي تمثل التيار العربي المسلم، الشاطئ الأول للصراع:

١) هشام البطل .. بائع الملابس والتحف .

٢) لالة خديجة[2] أم هشام وزوج سي سعيد مورو .

(١) التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جوده السحار: ص٩٢،٩٣ بتصرف د/ صفوت يوسف زيد . الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٨٥م . القاهرة .

٢) (لالة) في اللهجة المغربية لعلها تعني: (السيدة) في لغتنا الفصحى.

٣) سي سعيد مورو أبو هشام (عالم الدين) الذي يشتغل بالدعوة الإسلامية وإمامة المصلين، ومدارستهم العلم في المساجد.

٤)أ- نور الدين الابن الأكبر لسي سعيد مورو.

ب- أنيسة ابنة سي سعيد مورو، وأخت هشام .

ج – عادل ابن سي سعيد مورو، وأخو هشام .

د – عائشة الابنة الصغرى لسي سعيد وأخت هشام .

٥)رشيد ابن أخ لسي سعيد مورو. الذي كان يأمل أن يزوجه من بنته الصغرى(عائشة).

ثانيا :الشخصيات التي تمثل التيار الغربي ، الشاطئ الآخر للصراع :

١) الغجرية (إيزابيلا) زوج نور الدين ، وأم بناته .

٢) ماري الفرنسية، والتي أسلمت وأصبح اسمها (مريم)..

٣) مريم ابنة أخو سي سعيد مورو وحبيبة هشام .

٤) الخياطة معلمة الخياطة والتطريز والرسم على القماش .

٥) خوليو (خالد) السبانيولي الحلاق .

كل هذه الشخصيات ازدحمت بها القصة، وحاولت الكاتبة وهي تبني أو تشكل هذا الفضاء الإبداعي، أن تسلط عدسة (كاميرتها) على بؤرة الصراع الحضاري بين العربي الإسلامي، والغربي المسيحي، عبر الفكرة الغربية التي صنعتها الآلةالإعلامية الغربيةعن هذه الأحداث الإرهابية، التي تقع هنا وهناك في عالمنا العربي والإسلامي، أو حتى في بلاد الغرب؛ أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم، التي اكتوت –وما تزال– بنيران الإرهاب الأعمى، الذي لم تكن هي ذاتها يوما بريئة من صناعته، ودعمه بالأموال والأسلحة والمؤامرات؛ لتفكيك الدول، أو هدم مقومات الأوطان!!. حاولت الكاتبة في بنائها لهذه القصة الإفادة من أحد هذه الأحداث التي تقع هنا وهناك، ولعل آخر ما وقعت

عليه الكاتبة كان حادث (مركز باتاكالون)[1] للفنون في وسط باريس، والذي راح ضحيته كثير من النفوس البريئة دون ما ذنب جنته!!؛ لتوفر بيئة خصبة ، ومواتية لإنبات صراع حضاري بين قوى وأخرى.

تحاول القاصة أن تصنع عبر هذا الحدث ما يمكن تسميته بـ(المعادل الموضوعي) لإرهاب الغرب، وصناعته للفوضى الخلاقة!! التي بشرتنا بها شمطاء البيت الأبيض (كوندا ليزا رايس[2]) يوما ما، وها هو طابخ السم لابد أن يتذوقه!!، بل ويرغم على التهامه!! وهاهي الأفاعي التي ربوها تعود فتغرس أنيابها وتفرغ في لحومهم سمها النقيع!! فكأن الكاتبة تقول: لا تلومونا!! فإذا كنتم تدعون أن هذا إرهابا إسلاميا، فإرهابكم سابق!!، إرهابكم هو الذي وفر البيئة والغذاء، وكل الدعم لإرهاب هؤلاء الذين ينتسبون للإسلام زورا وبهتانا!!. فالإسلام الدين الذي يمهد الأرض للحياة والحضارة والعمران لم يكن يوما يرضى عن القتل والخراب والفوضى!!. الإسلام والذي يرمز إليه في القصة كل من(سي سعيد وأسرته) يحاول أن يبذر في فضاء الأرض الحياة والقيم الحضارية والإنسانية للإسلام؛ العدالة والمساواة والخير والحب، الإسلام الذي أثمر هذه الحضارة التي تبهر –وما تزال– حتى الغربيين أنفسهم!! مما لمسوه وعايشوه في بلاد الأندلس، وما تحمله من تاريخ حضاري وديني، وتراث قيمي وعلمي، ونسق معرفي وحضاري عريق ومسالم ،يتعايش مع كل الأعراق والأجناس في تواد وتراحم وسلام!!، في حين الغرب والذي ترمز إليه الغجرية (إيزابيلا ، وخوليو وماري والفرنسيين والفرنسيات اللائي تزوجن بأولاد سي سعيد أو سرقنه، منه ومن عائلته. والذين كشفوا أكثرهم عن وجوه قبيحة وخائنة

١) وقع هذا الحادث الإرهابي في١٤ من نوفمبر٢٠١٥ م،وواكبته أحداث أخرى نفذت في فرنسا بالأسلحة النارية والسكاكين قتل على أثرها ما يقرب من١٢٨ شخصا غير المصابين الذين تجاوز عددهم أكثر من٢٠٠ شخص.

٢) وزير خارجية أمريكا في رئاسة المتصهين : جورج بوش الابن .

وغادرة، عبر قيمهم ومبادئهم،الطافحة بماديتهم وأطماعهم وأحقادهم وتأمرهم وخياناتهم وكراهيتهم لكل ما هو عربي ومسلم..

الكاتبة وضعت يدها على الجرح الذي كلما يُنكأ، تتقاطر منه إفرازاتهم الناتجة عن العفن والعطب والحقد الدفين على هذه الأمة، التي كانت يوما ملء السمع والبصر!! ونشرت حضارتها مبادئ وقيما حضاريةوإنسانية ومعارف ما تزال شاهدة على فاعليتها وحضورها، وحيوية دورها في تشكيل الوعي الإنساني، وإسهامها الحضاري الشاهد، الذي لا تنكره إلا العيون الرمداء!!

حاولت الكاتبة وهي تمارس عملية بناء فضاءها الإبداعي أن تكشف عبر رسمها لملامح شخصياتها كي تسهم في تقدم الأحداث وتنمو عبرها الشخصيات في فضاءها الإبداعي أن ترسم بريشة الفنان ملامح العملاق؛ العالم المسلم (سي سعيد مورو) في هذه المقاطع.

** (سي سعيد مورو): العلامة والإمام، الذي ينحدر من أصول أندلسية حسب ما أخبره أبوه وجده .. حفظ القرآن الكريم من الصغر، وكذلك الشعر والمتون، واطلع على كتب التاريخ والأدب والسير .. فأخذ منها بحظ وافر.. مكتبته في البيت تضاهي كبريات المكتبات من حيث عدد الكتب وقيمتها، إلى جانب بعض المخطوطات النادرة التي وقعت بين يديه .. كان يعمل في الصباح في الأرض التي ورثها عن أبيه، يحرثها ويزرعها ، ويعتني بأشجارها وغلاتها، مع عماله .. يترك جزءا منها للبيت ويبيع الباقي .. لم يُدِرّ عليه عمله ذاك ثروة طائلة، لكنه ضمن له عيشة كريمة، وفي المساء كان يقصد المسجد القريب، والمساجد عمومًا في تلك المدينة قليلة، فيؤم الناس للصلاة ثم يجلس بعض طلبة العلم حوله، في حلقة علمية يدرسون ويتدارسون[1]. في هذا

١)القصة ص :٤٢ .

المقطع القصصي تحاول الكاتبة أن ترسم لنا الملامح الداخلية والتي تعني بالعلم والالتزام والهدى والصلاح والعمل سواء في أرضه أو إمامة الناس في الصلاة ، ومدارستهم العلم..، وهي قيم وأخلاق ومبادئ إنسانية وحضارية، لها صلتها بالقيم والموروث الحضاري لشخصية (عالم الدين) في الإسلام. ومن ثم، لم تستغرقها الملامح الخارجية أو الأوصاف الشخصية كالطول والقصر، واللون وغيرها، من كل ما هو شكلي أو خارجي، مما لم يكن له أثر هنا في بناء هذه التجربة القصصية؛ لأن الصراع هنا حضاري وفكري وإنساني وقيمي، يحتاج لما هو فكري وقيمي وأخلاقي. ومن ثم ، سنجد بعض انعكاسات لهذه الملامح في رسمه لصور زوجه وأبنائه:

** تقدم القاصة زوج العالم (اللالة خديجة[١]) مستهلة بهذا الدعاء الأثير لدي كل الأمهات/النساء العربيات المسلمات:

" – الله يعطيك ويغنيك، ويبعد عليك ولاد الحرام..إنه الدعاء الجميل الذي تودع به (لالة خديجة) كل صباح، ابنها هشام وهو متجه إلى العمل..تدعو له بالتوفيق عسى أن يحظى بالربح الوفير،فطلب الرزق في مدينةجبل طارق ليس بالأمر السهل.. لأن هذه المستعمرة البريطانية لا تحتوي الكثير من الخيرات، وبالتالي الكثير من فرص العمل..خاصة لمن لا يحملون الشهادات كحال هشام..(لالةخديجة) من أسرة مغربية عريقة، في العقدالخامس من العمر، تزوجت منذ ثلاثة عقود بالسي سعيد مورو[٢]". "رغم أن مدينة(جبل طارق) مستعمرة بريطانية، ورغم أن أكثر سكانها من تلك البلاد إلى جانب اسبانيا والبرتغال، فإن هذا لم يمنع من وجود عائلات مغربية، سكنت فيها منذ القديم، بحكم العوامل التاريخية المعروفة، وعائلة(السي سعيد) واحدة منها..هي

١ لعل كلمة (لالة) في اللهجة المغربية تعني (السيدة في العربية الفصحى .

٢) القصة ص : ٤٢ .

بلدة صغيرة ولكنها رائعة الجمال، تتعانق فيها زرقة البحر مع خضرة الطبيعة، ويزينها في شموخ جبل طارق..ورغم أن كل شيء يوحي بأنها بلد غربي بدءًا من الحاكم ، ومرورًا باللغة، وانتهاءً بأغلبية السكان، فإنها تبقى بلدهم،وهم أولى بها، وإن كان هناك دخيل، فهم أولئك الذين استولوا عليها، بعد أن خضعت لسبعة قرون ونيِّف للحكم الإسلامي.. هكذا كان يفكر(السي سعيد) رغم معارضة (لالة خديجة) له من حين لآخر.

– " أنت كتلعب بالنار، ويجي نهار لي تحرقك ، السياسة ماشي مزيانة ".

– " واخا لالة .. ما يكون غي خاطرك [1]" .

كان (السي سعيد) يطيب خاطر زوجته وأم أولاده، ويعدها في كل مرة أنه لن يتكلم في أمور السياسة، لكنه لا يستطيع.. فنفسه تنازعه إلى طلب مجد الآباء والأجداد، الذين طردوا من الأندلس ذات يناير..لم يكن يفوت حلقة من حلقات الدرس، دون أن يستحضر مع طلابه تاريخ الأندلس العريق..كان يدرك أن مطلبه بعيد جدا، وأن المشقة كبيرة للغاية..لكنها لن تكون كمشقة(طارق بن زياد[2])الذي سميت هذه المدينة باسمه، رغم أنوف الجميع، ولن تكون كمشقة(عبد الرحمن الداخل[3])الذي شق الصحراء والفيافي، ليدرك الأندلس أخيرا..ومن أجل هذا كانت (لالة خديجة) تنهاه..كانت تخشى أن يتحول هذا الحلم الذي يراوده منذ زمن طويل إلى مطالب حقيقية، ستكلفه لا محالة السجن

---

١) توظف الكاتبة العامية المغاربية، مغربية كانت أو جزائرية، وهذا يمنع من تحليق الحوار والإفادة من قيمه وطاقاته الإبداعية إذ اللغة العامية تمنع التواصل والالتقاء بين المبدع والمتلقي. وإذا كانت دراسة اللغة القصصية هنا ليس مجالها هنا لا تتطلبها الدراسة،إلا أن التنويه إليها واجب؛ ليدرك المبدع والمتلقي أهميةاللغة وفصاحتها في إنتاج الإبداع الأدبي. راجع دراستنا في هذا المضمار: اللغة وتقنيات البناء القصصي ص١٩٧ وما بعدها.

٢) طارق بن زياد فاتح الأندلس، عاش ما بين سنة (٥٠ : ١١٠٢ هـ / ٦٧ : ٧٢٠ م) .

٣)عبدالرحمن الداخل،واحد من الفارين من العباسيين في بلاد المشرق،وغادرها إلى بلاد المغرب(القوط والقشتاليين)، وأسس امبراطورية إسلامية في بلاد الغرب بمن دخل معه الإسلام من البربر في(إسبانيا وتوابعها)، واستمرت الحضارة الإسلامية حتى ساطعة شمسها حتى أفلت، سقطت دولة الخلافة في الأندلس بعد أكثر من ثمانية قرون .

وربما الإعدام، لا قدر الله بتهمة الانقلاب والتمرد..وعلى العموم لم يأخذ تحذيراتها على محمل الجد، فهي امرأة تحكم عاطفتها، ونظرتها للحياة ضيقة، بينما كان هو يتطلع للبعيد، ويرجو أن يحقق مراده ولو بعد حين..وإذا لم يقدر له ذلك فلا أقل من المحاولة.([1])"من أجل هذا كانت (لالة خديجة) حريصة على توفير الهدوء في البيت، وتلبية طلبات أفراده، على حساب صحتها وسعادتها.. فكرت في حل..فلم تجد غيره .. قررت أن تتحمل مسؤولية اختفاء المجسم.. عاد (السي سعيد) في ذلك اليوم مبكرا على غير عادته .. فقد شعر بصداع شديد..دخل إلى المكتبة مباشرة..وأغلق عليه الباب،واستلقى على الأريكة.. يريد الاختلاء بنفسه لحظات من الوقت..بدأ قلب(لالة خديجة) في الخفقان. اقتربت ساعة الحسم..رفع رأسه فلم ير قصر الحمراء..فرك عينيه ونظر مجددا..ليس هناك..نادى زوجته بأعلى صوته..أقبلت مسرعة وهي ترتجف.

– خير إن شاء الله، علاش كتعيط. أمسكها من يدها بقوة، وأخذها إلى مكان المجسم .. سكتت للحظة ثم اعترفت له بأنه سقط من بين يديها حين كانت تنظفه.. وقامت بإخفائه حتى لا يراه..لم تكد تكمل كلامها إلا وقد نزلت صفعة قوية على خدها .. صرخت عائشة وبدأت في البكاء، فلم تر من قبل والدها يضرب أمها..أما(لالةخديجة) فمسحت الدمعةالتي نزلت مع الصفعة،وانسحبت إلى المطبخ تحضر العشاء[2]" في الصباح التالي، حضرت (لالة خديجة) العباءة والطربوش لزوجها كعادتها، أمسك يديها وقبلهما..ثم انصرف..تلك هي طريقته في طلب الاعتذار.. وقد قبلت اعتذاره بصدر رحب..هو كل عائلتها الآن..وقد علمتها أمها منذ زمن أن المرأة الصالحة ترضي زوجها، ولو على

١) القصة ص :٤٣ .

٢) القصة ص: ٤٥ .

حساب نفسها[1]". فكل ما جاء في المقاطع أو التقاطعات اللغوية إلى جانب كونه يكشف عن طبيعة شخصية زوج (السي سعيد مورو) السيدة (لالة خديجة) والسمات التي تتميز بها زوج عالم الدين في بناء القصة من كونها زوج مخلصة ومطيعة ومتفانية في خدمة أسرتها، وراضية بقضاء الله وقدره، سواء في علاقتها بزوجها، التي ربما يظهر منه بعض ما لا ترتضيه من سلوك في قيادته لأسرتها أو تربيتهم، فإنه في الوقت نفسه يضيء جانبا من شخصية البطل الزوج (سي سعيد). سيما، عندما تخشى عليه من التجاوز في دروسه وحديثه في السياسة التي ربما تؤلب عليه إدارة حكم البلد الذي يؤيه!!، كما لا تفتأ تحذره من الحديث عن ذكر أمجاد قومه الأندلسيين المسلمين، وأحقية من ولدوا (أحفادهم) في وراثة الحكم وإدارة البلاد، مما يصور الحاكم على أنه مغتصب ومحتل!!، وإن كان هذا حقيقة لكن إظهارها هكذا ربما يجر عليهم ويلات هم في غنى عنها!!.

وإن كنت آخذ على الكاتبة أنها لم تمكن للتمرد السياسي في شخصية (سي سعيد مورو) ولم تؤصل صورته النمطية على الشكل الذي يجعلنا نقتنع. ومن ثم، نبرر سلوكه وتصرفاته هذه، بقدر ما مكنت لهذا التمرد الاجتماعي والتربوي في المنزل وفي مواجهة الأسرة الذي شغل حيزا ليس بالقليل في قصتها!! فهو يتعامل مع زوجه وأبنائه بغطرسة وصلف ربما يتجاوزان كثيرا سلطة وصرامة الآباء في تربية أبنائهم . ومن ثم، تثمر طريقته في التربية أو الإدارة سوى الرفض والفشل الذريع في الاستجابة لرؤيته هذه في الحياة التي يريد لهم !!. فلا أدري هل كان هذا عفويا ضاق عنه متن الفضاء القصصي أم أنه تعمد؟ أربأ بالكاتبة أن يكون هذا تعمدا !! ؛لأنه سيضعها في مواجهة

١) القصة ص :٤٦ .

حضارية مع رمزية (عالم الدين) وتوظيف وجوده في العمل الفني، وانحياز لرؤية أقل ما توصف به أنها متصادمة مع الرؤية الإسلامية، التي ينتجها الفكر النقدي المنبثق من التصور الإسلامي للتجربة الإبداعية.

ورغم تهافت صورة التمرد السياسي الذي لم نره أبدا إلا في ومضات هنا وهناك ولا يمكن أن نقبل بأنها طبيعة القصة القصيرة التي تعتمد على الومضة واللمحة هنا أو هناك لأن القصة–وكما قلنا سالفا–تجاوزت طبيعة القصة القصيرة بخصائصها وسماتها الفنية، وامتدت نحو عالم الرواية كذلك بخصائصه وسماته الفنية، برغم ذلك هذا التهافت أودى به إلى السجن في قضية أمن دولة!!: "أنهى (هشام) عمله، وعاد إلى البيت كالعادة، فوجد أمه تبكي وتنوح .. ظنها مريضة ، لكنها أخبرته بالفاجعة .. لقد أتت الشرطة قبل ساعة، وألقت القبض على والده بتهمة التمرد، وتكوين جماعة أشرار للانقلاب على الحاكم .. ورغم أنهم أوكلوا له محام إلا أن القضية كبيرة لأنها تتعلق بأمن البلاد واستقرارها..ربما كانت عين من العيون تراقبه وهو لا يدري، تراقبه وهو يتدارس مع طلابه تاريخ الأندلس، ويزرع فيهم الهمة والعزيمة لاستعادتها ذات يوم. بقي(السي سعيد)في السجن شهرًا كاملا، ذاق فيه مختلف أنواع التنكيل والضرب كان يصبر نفسه بأجداده الذين سامتهم محاكم التفتيش سوء العذاب..حتى جاء اليوم الذي اتصلت فيه ماري بهشام تسأله عن سر غيابه المدة الماضية[1]".

** وعندما يتحدث عن (هشام) الابن الأكبر:"لم يرث (هشام) من والده شغفه بالعلم والكتب والتاريخ .. ترك المدرسة في سن مبكرة رغم إلحاح السي سعيد، بل اختار طلب الرزق، واتخذ من شراء قطع الملابس وبيعها تجارته..لم

١) القصة ص :٤٧ .

يعجب هذا العمل (السي سعيد)([1])". فـ(السي سعيد)لم يعجبه تصرف الابن، ولم يرض عن سلوكه في ترك المدرسة، وعدم شغفه بالعلم والكتب والتاريخ، وذلك سيكون له صداه على شخصية هشام بعد ذلك فيما يخصه من الصراع !!.

** أما ابنه الأكبر (نور الدين) ، تلك الشخصية التي تصر الكاتبة ألا تحضر في الأحداث ولم يكن له دور يذكر برغم الاسم الذي يوحي بالتفاؤل والنور المنبثق من الدين ، وليس من شيء آخر. فلم يحضر أولا: إلا على لسان القاصة في معرض الحديث عن أبناء (السي سعيد)، ثم تكمل الراوية ما يكشف عن انهزامية (نور الدين) وعجزه أمام (إيزابيلا)، تلك التي أَسرته بجمالها، وأبهرته بتحضرها المادي الذي أذهب عقله، فجعله يتفلت من أَسْرِ أُسرَتِه، ويرفض الاستجابة لما حذروه منه، منحازا للجانب الأكثر إغراء، والأبهى جمالا من وجهة نظره!!: "... (نور الدين) الأكبر تزوج منذ زمن واستقل ببيته وأولاده ، تعرض إلى حادث مرور وتوفي..[2] "

وثانيا: فيما تذاكره الجدان (سي سعيد مورو لالة خديجة)، عند سؤلهما عن أسرته ؛ زوجه وبناته، بعد وفاته: ".. وبعد أن أنهى خطبته، تكلمت:

– غدّا ناوية نمشي لدار نور الدين، توحشت البنات، راني في شهر ما شفتهمش، وأمهم الله يقطعها ما كتخليهمش يزورونا.

أطلق السي سعيد زفرات طويلة ـالله يرحمك يا نور الدين ـ ياك قلنالك هاذ المرا ما كاتوالمكش ..[3] "

تزوج(نور الدين) منذ سنوات بامرأة غجرية من الرحل، لا أصل لها ، سلبت عقله وقلبه بجمالها ، ورغم رفض العائلة إلا أنه لم ينصع لرفضهم

١) القصة ص٤٣ .

٢) القصة : ٤٣ .

٣) القصة ص :ص: ٤٤

وتزوجها!!، واستقل ببيت بعيد عنهم .. كان يعمل ليل نهار لإرضاء طلباتها التي لم تنته إلا بانقضاء أجله!! .. رُزِقَ منها بثلاث بنات ، لا يعرفن بيت جَدِّهن كيف هو، ولا أين يقع.. كانت تمنعهن من الذهاب إليه في حياة زوجها، وكذلك بعد وفاته، لأنها خشيت أن يأخذوا بناتها ويطردوها .. ولكن ليس هذا وحده الذي يحز في نفس الجَدَّين ، فقد سمعا مؤخرا من بعض الناس أنها تصاحب أحدهم .. وهما الآن يحاولان التأكد وجمع الدلائل، حتى يَفتَكَّا الحضانة منها.. لكن يبدو أن الوقت كان أسرع منهما.. فقد ذهبت (لالة خديجة) لزيارة حفيداتها ، حاملة معها فواكه وحلويات .. دقت الباب عدة مرات.. نادت..لا أحد يرد..بقيت جالسة عند العتبة تنتظر فلعلهم خرجوا لمشوار وسيرجعون..عد([1]) ساعة من الانتظار، مر بقربها أحد الجيران الذين تعرفهم ، سألته فأخبرها الخبر الذي نزل عليها كالصاعقة، منذ أسبوع أحضر صديق إيزابيلا، زوجة المرحوم شاحنة ، وضعوا فيها بعض الأثاث ، ورحلوا جميعا..لقد ألفت حياة الغجر والترحال..لم تستطع الاستقرار أكثر..ولكن ما ذنب البنات اللواتي نشأن من صلب شريف عريق..لم يستطع(السي سعيد) هضم الأمر..اتصل بالشرطة..بحث في كل مكان..بلا جدوى!!. فلعلها تجاوزت بحفيداته البحار الآن.. تبًا لسوء الاختيار..تبًا إيزابيلا، لطالما رفضها.. وكره نطق اسمها الذي يذكره بإيزابيلا القشتالية ، تلك المرأة التي كتبت بالدم نهاية الأندلس([2])" .

فهذا التدخل الصريح والمباشر من الكاتبة في تشكيل فضاء القصة، وكأنها تمتطي منبرا ، وتحاول أن تشرح لنا مأساة هذه الأسرة مع زوج ابنهم

---

١) عدَّ الفعل الماضي هنا استعملته الكاتبة بمعنى: مر أو فات. وهو استخدام عامي وليس فصيحا، إذ لليس من معاني (عد) في معاجم اللغة الفصحى كلسان العرب: فات أو مر، بل لها معانيها البعيدة تماما عن المعنى الذي تقصده القاصة في عبارتها: (عد ساعة من الانتظار..) .

٢) القصة ص :٤٤ .

الأكبر وبناته، ومعاناتهم من جراء أفعالها منذ أن اقترنت بابنهم الأكبر(نور الدين)!! وغاب تماما صوت الأب والأم المعنيان بالمأساة!!. ولو أن الكاتبة تركت لهما الفرصة للتعبير عن مأساتهما لكانا أكثر بيانا وصدقا وإقناعا عبر بنية الحوار بين الأبوين (الديالوج)، أو عبر خاصية التفكير؛ الحوار النفسي أو الداخلي، (المنولوج). سيما، وهي معاناة أقرب في وجودها إلى الوجدان والتفكير ومجالدة النفس، منها إلى المباشرة أو الخطابة!! كما فعلت القاصة التي أوكلت لنفسها، أو لراويتها،الحديث نيابة عن الشخصيات في أكثر المواقف سخونة وجدالا!!!.

أما عن مستويات اللغة في القصة ، فنرى أنها جاءت ملائمة للشخوص في الأعم الأغلب . سيما ، والأصوات التي شاركت في إدارة الحدث كانت كلها أصوات غير متباينة ولا كاشفة عن تباين ثقافي أو حضاري أو حتى فكري على نحو ما نرى في قصص ذوي الاحتراف من القصاصين..كان صوت الكاتبة هو الصوت الطاغي بعد صوت الرَّاوِيَة. برغم أنها تمارس حكيها بالفصحى حينا، وحينا آخر بالعامية. وهذا يصنع إرباكا للمتلقي، إلى جانب الاضطراب في البناء أو النسج الفني..ومن ثم، أهمس في أذن الكاتبة بأنه ليس من الواقعية كما يدعي بعض النقاد:أن تحاكي الشخصية أو الأدب لغة الواقع اليومي أو العامة، سيما العامية، تلك اللغة الفجة التي يعدها كثير من الأدباء بأنها لغة الحياة اليوميةومن ثم يجدر بها أن تكون لغة الحوار الأدبي فضلا عن الإبداع!!. فالأدب، يا سيدتي يهذب النفوس، ويرقى بالأحاسيس، ويسمو بالمشاعر، ويرتفع بمستوى الخطاب، ويحلق في آفاق عليا، ليس باستطاعة العامية المحدودة الطاقات أن تصل إليها..فالأدب من أسمى وظائفه، الارتقاء بعقلية المتلقي، وترقية ذوقه، وتهذيب مشاعره، وتغذية فكره،

بالقيم والثقافات الإنسانية والحضارية الرفيعة، التي لا تقدر العامية على أدائها سيما والعامية المغاربية غير منتشرة أو معروفة في العالم العربي. ومن ثم فعبارة الحوار كانت ميتة لا ماء فيها ولا رونق بل يابسة ومتخشبة ولم تتضح عن إحساس أو شعور أو ترسم ملامح عاطفة. فجاء الحوار جافا فضلا عن كونه مجهولا للقارئين وأنا واحد منهم، فما معنى قول القاصة على لسان السي سعيد:

*أطلق السي سعيد زفرات طويلة . الله يرحمك يا نور الدين ـ ياك قلنالك هاذ المرا ما كاتوالمكش". (–ياك قلنالك هاذ المرا ما كاتوالمكش") .

ولعلني لا أبالغ إن قلت: لم أكن فاهما للمعنى وانعكاساته الشعورية، وإشعاعاته النفسية على نحو لا يخرج عن أنه: يحذره من زوجه الغجرية بأنها لن تنفعه!! ربما يكون موافقا لما جاء في حوار (السي سعيد) مع زوجه (لالة خديجة)!. ماذا كان يضيرها بوصفها قاصة تجري الحوار على لسان شخصية (سي سعيد) وهو عالم دين؛ متعصب لتراث أجداده ومجدهم التالد؟!! ولا أعظم من اللغةفي عين هذا التراث العربي الإسلامي!!وهو عالم الدين، والمثقف المستنير، والممسك على دينه وقرآنه، والقابض على لغته قبضه على أَنْفَس ما يمكن أن يحرص عليه أو يملك!!.ومن ثم،فمن المناسب أن نبحث عن لغة؛ في لغتنا الفصيحة، ذات الثراء المعجمي الذي لا يبارى في لغات العالم، تعبر عن هوية أنماط المجتمع وشرائحه المختلفة، دون السقوط في براثن العامية، التي تحد من تحليق الفنان، ومن طاقات إبداعه، في فضاءات الأفق الفسيح لعالم الإبداع.

تشكل عملية الغياب لشخصية الابن (نور الدين) وزوجه إيزابيلا وبناته هكذا اللذين لم نعرف عنهم شيئا سوى ما قدمته القاصة، أو راويتها، عبر لغتها المقتضبة، هكذا لغزا مفتعلا!! فكأن عملية الغياب ترمز إلى الذوبان والتلاشي

من الحياة، والتي كثيرا ما يطفو على السطح في مشاهد كثيرة من تلك التي تتصل بأسرة (سي سعيد) سيما أولاده في القصة!!، في الوقت الذي تهتم الكاتبة بشخصية الغربي الإسباني/ البريطاني (خوليو) الذي سعى واحتال على الشيخ وخدعه بأنه اعتنق الإسلام، وكان يحضر معه دروسه التي يلقيها بالمسجد؛ ليقنعه بالزواج من ابنته عائشة!! وهو عين مخابراتية غربية على نشاط الشيخ سي سعيد في الوقت نفسه!!:"كانت عائشة تقصد إحدى الخياطات يوميا..تتعلم منها فنون الرسم على القماش والطرز، وقد شجعها على ذلك هشام نفسه، بعد أن رأى إقبال الناس على شراء الملابس التقليدية..ففكر في توسيع تجارته.. وغير بعيد كان يراقبها حلاق يعمل بالقرب من محل الخياطة..اسباني الأصل.. طويل القامة، نحيف الجسم، حاد الملامح..حاول التقرب منها بكل الطرق.. لكنها صدته بقوة .. مضت أيام وأيام ولم يظهر.. شعرت عائشة بغيابه ، فقد كان ينتظرها كل يوم عند مدخل دكانه .. ولكن لماذا تفكر فيه وتسأل عنه .. فليذهب إلى الجحيم .. ومن الصدفة فتحت الخياطة موضوعه معها.

–شفتي جارنا السبنيولي، ياك ربى اللحية،ولبس العباية والشاشية، واقيلا هداه الله. لم تظهر عائشة اهتماما بالأمر..لكنها شعرت بالارتياح..لم تعرف لم(١). هل ارتاحت منه، أم لأنه أسلم؟!. من ساعتها لم يكلمها ولم يتعرض لها، لكنها لاحظت ذات مرة أنه يتعقبها في الطريق..خافت منه وأسرعت الخطوات حتى وصلت إلى البيت..فانصرف.. وفي اليوم التالي كانت المفاجأة .. لقد زارهم في المنزل دون سابق إنذار.. تعجب السي سعيد وظنه للوهلة الأولى طالب علم جديد، بعد أن رأى هيئته.

١) لعل لم تعرف لمه؟ أكثر صوابا في الصياغة اللغوية للسكوت على لم الجازمة ولا معمول لها.

– السلام عليكم .. عمي وبدون مقدمات أطلب يد كريمتكم..أنا مسلم إسباني الأصل، أندلسي الجذور. وقعت الكلمة الأخيرة على صدر(السي سعيد) فأثلجته، لطالما تمنى الحفاظ على أصله الأندلسي ، ولكن أولاده خذلوه ، فلتكن عائشة من تفعل .. خاصة بعد أن يئس من رشيد الذي تناهى إلى مسامعه، بأنه تزوج في اسبانيا واستقر هناك .. لكن ما الذي يدريه بأنه صادق فعلا.

– طيب يا ولدي ، قبل أن أعطيك الكلمة، يجب أن تزورني في المسجد ، في الحلقات التي أجتمع فيها مع طلبتي كل مساء .

لاحظ (السي سعيد) مواظبة (خوليو) الذي أصبح (خالد) بعد الإسلام ، كما لاحظ عليه أيضا اهتمامه الكبير بتاريخ الأندلس ورجالها، وبعد شهرين من الاختبار وافق على تزويجه ابنته.. أقام عرسا بسيطا دعا إليه بعض الأقارب والأصحاب..وانتقلت عائشة إلى العيش في بيت خالد، الذي كان عبارة عن غرفة نوم واحدة ومطبخ صغير وحمام.. وهو كل ما ورثه عن والديه.. رضيت بتلك المعيشة البسيطة، وعرفت الحاجة ومن قبل لم(١) تعرفها.. كان بيت أبيها مليئا بالخيرات.. مليئا بالكتب..مليئًا بالحنان والحب..صحيح أن(خالد) لم يعاملها بقسوة، ولكنه يعاملها ببرودة(٢)، وكأنها ليست الفتاة التي ركض خلفها طويلا، وربما أسلم من أجلها.. بلى ولكن أحيانا يزهد الناس في الأشياء بمجرد امتلاكها..لم تخبر عائشة والديها بالأمر، فقد تعلمت من (لالة خديجة) الصبر على طبائع الزوج..الآن فقط أدركت كم صبرت أمها..فـ(السي سعيد)رغم طيبته،إلا أنه رجل جدي وصار،لا يعرف المزاح. استمر (خالد) في المواظبة

١) لو كانت هكذا: لم تكن تعرفها!! لكان ذلك أكثر فاعلية، لتحديد عدم حاجتها في الزمن الذي يسبق زواجها!!

٢) لعل(برود) أكثر ملاءمة للمعنى المقصود من العبارة لأن برد من معانيها: فتر وجمعهما على التوالي:(البرود والفتور. ولعل عبارة القاصة تقصد هذا.أما البرودة فهي ضد الحرارة فـ(برد برودة أي صار باردا،والأرض أصابها البرد.راجع:لسان العرب مادة: برد. وهذا المعنى لم يكن مقصودا من عبارتها ولا يؤدي شيئا في حيوية الفن

على الذهاب إلى المسجد، وحضور الحلقات العلمية،حتى إنه أغلق دكانه، وأصبح قيما على الجامع..وهو ما جعله يكبر أكثر فأكثر في نظر عمه.

كانت (عائشة) تزور أمها من وقت إلى آخر، ولا تخرج من بيت والدها إلا وهي محملة بكل أنواع الطعام والفواكه .. لم تكن تشتكي لأمها، ولكن (لالة خديجة) انتبهت إلى الصفرة التي تكسو وجه ابنتها ، بعد أن كان يشع نضارة وحيوية.. تفطنت إلى أنها لا تأكل جيدا ، ولكنها لم تفتح معها الموضوع أبدا.. وكلما سألها السي سعيد عنها، أجابته أنها بخير[١] " .

فهذا المقطع(٥) القصصي كاملا، رغم طوله كان عن هذا الـ (خوليو)، حيث أسهبت الكاتبة في وصفه وحكايته، وحتى بعد أن أسلم وتحول من (خوليو) لـ (خالد)، لم نرصد ملامح هذا التحول إلا عبر هذه اللفتات الخطابية والتدخل والمباشرة التي تنال – لا شك – من توهج الأحداث وتفاعلاتها على مسرح الأحداث!! وتحد من تحليق الخيال لدى المبدع وكذلك المتلقي على السواء. فالتجربة الإبداعية لا يكتمل نجاحها إلا بعملية الالتقاء والتفاعل بين المبدع والمتلقي، فعندما ينشط خيال المبدع، ويتألق في توظيف أدواته، يحدث على الجهة الأخرى (المتلقي) ذات النشاط والإثارة والتفاعل، فيبدع في عملية موازية، ينشط خلالها خياله، فيتصور ويبني ويشكل عبر أفقه الإبداعي، ويكمل ويرتب ويعيد كثيرا ربما مما فات المبدع أو تغاضى عنه أو تركه للمتلقي ثقةبه، وليس كما يفعل كثير من الكتاب من متوسطي الموهبة الذي لا يثقون بالمتلقين فيصنعوا لهم كل شيء وعندها سيتركهم المتلقي، ولن يلتفت إلى ما أوغلوا فيه وأطنبوا في شرحه، إلى أي شيء آخر!!. المتلقي شريك للمبدع في إنتاج التجربة ونجاحها، ولعل ما ذكره أستاذنا الدكتور(عبداللاه محمود حسن

١) القصة ص : ٤٦ .

محروس) في بحثه الشيق، ما يؤكد على هذه العلاقة : "إن التجربة الشعرية (وكل تجربة) وإن كانت تتحكم أولا في الفنان، وتدفعه إلى التخليق الفني، غير أن الفن المتخلق منها يرنو دائما إلى المتلقي بقصد إخضاعه لها، وإحداث تغيير فيه إن لم يكن في المجتمع كله..فالإبداع الفني في شتى صوره هو الوسيلةالفذةوالقادرة وحدها على نقل تجربةدفعت المنشئ على التكوين الإبداعي، في صورة يريد لها أن تتشكل وتوجد عند المتلقي على نحو مماثل ومساو، حتى يصبح المتلقي والمنشئ على درجة واحدة من الخضوع للتجربة [١]".

** أما ابنته (أنيسة) والتي تزوجت من موظف من الرباط وانتقلت للعيش هناك واختفت تماما عن عالم القصة ولم تطف أبدا –ولو بدرجة ما– على السطح في أي من الأزمات!! وهذا شأن كثيرين في مجتمعاتنا العربية الذين يتعشقون الانسحاب من الحياة، والارتكاس في مشكلاتهم، وعدم التفاتهم لما هو خارج ذواتهم، أيًّا كان خطره عليهم!!. ومن ثم، ستسقط من حسابات أبيها، لن يتذكرها خلال رحلته ومعاركه في هذا العالم المتصارع المتلاطم!! حتى اسمها(أنيسة!!) لم يحقق أيًّا من معانيه في واقع أبيها أو أسرته !!

**أما ابنه الأوسط (عادل)الذي تزوج شابة بريطانية وهاجر إلى لندن وهو بفعله هذا، استسلم وانحاز إلى الجانب الأخر من الصراع، دون أدنى مقاومة تذكر، مما لم يعجب (السي سعيد)ويجعله يشعر بالامتعاض وربما بالفشل في تربيتهم على النحو الذي يريد، أو أنه لم ينجح في توجيه أبنائه نحو بوصلة الهدف الحقيقي في المجتمع العربي الإسلامي والذي كان يتغياه من وجودهم في هذا المكان(مدينة جبل طارق)؛ بكل تداعياته الحضارية وإمكاناته التاريخية وانعكاساته الفكرية والعقيدية. ولعل تسميته بـ(عادل) كانت تعكس هوية سلبية برغم رمزيةالاسم الذي يستدعي قيم العدل والحث، وسلامة الرؤية وصوابية

١) التجربة الشعرية عند المتلقي ص١٣، بتصرف–د.عبد اللاه محمود حسن محروس،مطبعة الأمانة،أولى،١٩٨٨م،مصر

التفكير، وليتها تقف على الحياد من الصراع ليصدق عليها اسم عادل لكنه بانحيازه وسلبيته وهروبه واستسلامه وهجرته إلى أرض غريبة عن مجتمعه وعالمه وهويته وعاش واقعا انسحابيا واستلابيا، بل ومنحازا للغازي والمحتل!!.

** أما (عائشة) أصغر بناته "تصغر هشام بأربع سنوات، هي الوحيدة التي ورثت عن أبيها الشغف بالعلم والمطالعة والكتب والتاريخ، سماها والدها بهذا الاسم تيمنا باسم أم المؤمنين رضي الله عنها، وأملا في أن يخرج من صلبها رجل يعيد بلاد الأندلس ، ولا يبيعها كما فعل أبو محمد الصغير، أجل فما فتئ يذكر دور عائشة الحرة في ثبات ملك غرناطة دهرا من الزمن[1] " .

لكن للأسف الكاتبة عز عليها أن ينجح الرجل (السي سعيد)–ولو مرة– في تربية أبنائه وتحقيق حلمه فيهم!! فَزَوَّجتْها من المجرم اللص(خوليو) الذي سرقها بحيلة الزواج منها!!. ثم سرقها بعد ذلك، وخلعها عن محيطها العائلي والعربي والإسلامي، وذهب بها بعيدا عن أسرتهاوعالمها،بعيدا عن شاطئها؛حيث الدفء والأمن والطمأنينة، وأخذها للشاطئ الآخر منفردة، واغتصب طهرها ونقاءها، ودفعها لعالم غريب عن قيمها ومبادئ دينها وأخلاق أسرتها وقيم حضارتها، إلى عالم الجريمة؛ حيث ذهب بها إلى مصير تجرعت فيها الخزي والعار والمهانة، وأخير الموت بلا هوادة !!. أرسل أبوها بعدما عرف بهروب زوجها الكذوب (خالد/خوليو) بها إلى موطنه في فرنسا، أرسل أخوها (هشام) إلى هناك ليبحث عنها ولكن للأسف بعد محاولاته عثر عليها على غير توقع:"..اتصلت الشرطة بهم، تخبرهم بوجود جثة تشبه الصور الموجودة عندهم..لكن مظهرها واسمها غير ذلك..هرع هشام إلى المركز..عرضوا عليه أكثر من جثة.. وقف عند واحدة، لمح وحمة في

١) القصة ص: ٤٣ .

معصمها، وصرخ: عائشة، عائشة..ماذا فعلوا بك..كانت ترتدي ملابس تظهر أكثر مما تستر، ووجهها مطلي بألوان من المكياج..ورصاصة قد اخترقت رأسها.. كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما.. أغلقهما وكان آخر عهده بها..بكى بشدة فأبعده الشرطي، وأخذه إلى المكتب ليكملوا الإجراءات..تبين أن الجثة تحمل اسم مونيكا، بائعة هوى .. تم تصفيتها وبعض رفيقاتها من قِبل عصابة .. لكنها عائشة في الحقيقة .. عائشة الجميلة البريئة.. اللعين أخذها إلى باريس ليتاجر بها..فبأي وجه سيقابل والديه؟!([1])".

وها هي هزيمة أخرى يُمَنَّى بها الأب الذي أفنى حياته من أجل الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية، في واقعه الحضاري، ونسقه الإنساني، لكن الغطرسة والصلف والجبروت الذي يحكم العلاقة بين طرفي المعادلة الإنسانية في هذا العالم، تأبى أن تفسح له مكانا ولو ضيقا في هذا العالم؛ لكي يحيا فيه هذا الآخر!! ومن ثم، أخذ ينتج لها كل ما من شأنه أن يبعده أو يهلكه بوصفه كائنا لا يستحق الحياة!!. فكل هذا الصفات أو السمات سيما الإيجابية التي تطرح عبر شخوص الأبناء، تقدم –في الوقت نفسه_ ملامح إنسانية وحضارية للأب (سي سعيد مورو)؛ عالم الدين، الذي يحمل في فكره مشروعه الحضاري الإنساني، المنضبط بقيم ومبادئ تثري الحياة، وتدفعها نحو البناء والتطور، ويسعى للمشاركة والتواصي بالتواد والمحبة سواء لأخيه المسلم، وأخيه الإنسان ولو كان يختلف معه في الجنس أو العرق أو اللون أو الدين. فحضارته تشهد له بكل أمارات البناء وتحقيق الخير وإفشاء السلام، وتمكين الجمال، وتأصيل الحب والتواد والتراحم. في الوقت الذي يحرص فيه أصحاب المشروع الغربي على كل ما من شأنه إزاحة المختلف وإبعاده وحتى القضاء عليه!!

---

١) القصة ص٤٨.

كل هذه الشخصيات كانت تمثل التيار المواجه للتيار المختلف، ولعلنا لا نتجاوز إذا قلنا: التيار المتصارع. ممن يقفون على على الشاطئ الآخر من نهر المواجهة!! المواجهة بين التيار العربي والإسلامي الذي تمثله الشخصيات: [سي سعيد مورو، وزوجه لالة خديجة، وأبنائه: هشام، ونور الدين، وأنيسة، وعائشة]، والتيار الغربي الأوربي بكل موجاته، والذي تمثله شخصيات: [الغجرية إيزابيلا، وخوليو، والسائحة ماري ذات الأصل الخليط ما بين البريطاني والفرنسي]، وهذا ما ستكشفه الدراسة عبر عرض ما يتصل بكل شخصية عبر خاصية (الوصف المباشر) الذي اعتمدته القاصة أداة لتقديم شخصياتها:

** إيزابيلا: "تزوج (نور الدين) منذ سنوات بامرأة غجرية من الرُّحَّل، لا أصل لها، سلبت عقله وقلبه بجمالها، ورغم رفض العائلة إلا أنه لم ينصع لرفضهم وتزوجها!!، واستقل ببيت بعيدا عنهم .. كان يعمل ليل نهار لإرضاء طلباتها التي لم تنته إلا بانقضاء أجله .. رزق منها بثلاث بنات ، لا يعرفن بيت جدهن كيف هو؟، ولا أين يقع ؟[1].. كانت تمنعهن من الذهاب إليه في حياة زوجها، وكذلك بعد وفاته، لأنها خشيت أن يأخذوا بناتها ويطردوها .. ولكن ليس هذا وحده الذي يحز في نفس الجَدَّين، فقد سمعا مؤخرا من بعض الناس أنها تصاحب أحدهم..وهما الآن يحاولان التأكد وجمع الدلائل، حتى يَفتَكَّا الحضانة منها..لكن يبدو أن الوقت كان أسرع منهما.. فقد ذهبت لالة خديجة لزيارة حفيداتها، حاملة معها فواكه وحلويات..دقت الباب عدة مرات.. نادت..لا أحد يرد.. بقيت جالسة عند العتبة تنتظر فلعلهم خرجوا لمشوار وسيرجعون.. عد ساعة من الانتظار، مر بقربها أحد الجيران الذين تعرفهم، سألته فأخبرها الخبر

١) جاءت عبارتها عارية من علامتي الترقيم؛(الاستفهام).

الذي نزل عليها كالصاعقة ، منذ أسبوع أحضر صديق إيزابيلا، زوجة المرحوم شاحنة، وضعوا فيها بعض الأثاث، ورحلوا جميعا .. لقد ألفت حياة الغجر والترحال .. لم تستطع الاستقرار أكثر..ولكن ما ذنب البنات اللواتي نشأن من صلب شريف عريق..لم يستطع السي سعيد هضم الأمر..اتصل بالشرطة..بحث في كل مكان..بلا جدوى فلعلها تجاوزت بحفيداته البحار الآن.. تبًا لسوء الاختيار..تبًا إيزابيلا، لطالما رفضها..وكره نطق اسمها الذي يذكره (بإيزابيلا القشتالية)، تلك المرأة التي كتبت بالدم نهاية الأندلس([1])".

فهذه المرأة الغجرية (الغربية) والمنحازة إلى الجانب الأقوى في الصراع، والتي مارست اللصوصية على هذا العربي المسلم واغتصبت وجوده من واقعه وعالمه العربي والإسلامي، حيث أن أسرته كانت ترفضها ولم توافق على زواج ابنهم منها. ومن ثم، لم ينصع لرغبة أسرته وتمادي في الانحياز لها وسيطرت عليه وخلعته من محيطه وخلصته لنفسها وبعد وفاته سرقت بناته وهاجرت بهن من موطنهن إلى عالم مجهول ليس باستطاعتهم العثور عليها، وكأنها تمارس على بنات الشيخ (سي سعيد) عملية تغريب كذلك ويذبن في المجتمع الغربي وينشأن على كراهية أهلهن وأصلهن العربي المسلم! وهنا تكون (إيزابيلا) قد انتصرت على غريمها الشيخ وأسرته بل وقهرته وهزمت كبرياءه، وأحرقت قلبه على فلذة كبده!! .

**أما(خوليو السبنيولي):ذلك الحلاق البائس والذي كان يعمل مع المخابرات في مقر إقامته، واحتال على الشيخ سعيد مورو وادعى أنه اعتنق الإسلام وأصبح اسمه (خالد)؛ ليجد له منفذا لمراقبته وكتابة تقارير أمنية عن نشاطه: "كانت عائشة تقصد إحدى الخياطات يوميا..تتعلم منها فنون الرسم على القماش والطرز، وقد شجعها على ذلك هشام نفسه، بعد أن رأى إقبال

[1]) القصة ص :٤٤ .

الناس على شراء الملابس التقليدية.. ففكر في توسيع تجارته.. وغير بعيد كان يراقبها حلاق يعمل بالقرب من محل الخياطة.. اسباني الأصل.. طويل القامة، نحيف الجسم، حاد الملامح .. حاول التقرب منها بكل الطرق .. لكنها صدته بقوة..مضت أيام وأيام ولم يظهر..شعرت عائشة بغيابه، فقد كان ينتظرها كل يوم عند مدخل دكانه..ولكن لماذا تفكر فيه وتسأل عنه..فليذهب إلى الجحيم.. ومن الصدفة فتحت الخياطة موضوعه معها.

– شفتي جارنا السبنيولي،ياك ربى اللحية،ولبس العباية والشاشية،واقيلا هداه الله

لم تظهر عائشة اهتماما بالأمر..لكنها شعرت بالارتياح..لم تعرف لم(١)..

هل ارتاحت منه، أم لأنه أسلم؟!. من ساعتها لم يكلمها ولم يتعرض لها، لكنها لاحظت ذات مرة أنه يتعقبها في الطريق..خافت منه وأسرعت الخطوات حتى وصلت إلى البيت..فانصرف..وفي اليوم التالي كانت المفاجأة .. لقد زارهم في المنزل دون سابق إنذار.. تعجب السي سعيد وظنه للوهلة الأولى طالب علم جديد، بعد أن رأى هيئته .

– السلام عليكم .. عمي وبدون مقدمات أطلب يد كريمتكم..أنا مسلم إسباني الأصل، أندلسي الجذور. وقعت الكلمة الأخيرة على صدر(السي سعيد) فأثلجته، لطالما تمنى الحفاظ على أصله الأندلسي ، ولكن أولاده خذلوه ، فلتكن عائشة من تفعل .. خاصة بعد أن يئس من رشيد الذي تناهى إلى مسامعه، بأنه تزوج في اسبانيا واستقر هناك .. لكن ما الذي يدريه بأنه صادق فعلا.

– طيب يا ولدي، قبل أن أعطيك الكلمة، يجب أن تزورني في المسجد، في الحلقات التي أجتمع فيها مع طلبتي كل مساء.

١) لعل لم تعرف لمه ؟ أكثر صوابا في الصياغة اللغوية للسكوت على لم الجازمة ولا معمول لها.

لاحظ (السي سعيد) مواظبة (خوليو) الذي أصبح (خالد) بعد الإسلام، كما لاحظ عليه أيضا اهتمامه الكبير بتاريخ الأندلس ورجالها، وبعد شهرين من الاختبار وافق على تزويجه ابنته..أقام عرسا بسيطا دعا إليه بعض الأقارب والأصحاب .. وانتقلت عائشة إلى العيش في بيت خالد، الذي كان عبارة عن غرفة نوم واحدة ومطبخ صغير وحمام .. وهو كل ما ورثه عن والديه..رضيت بتلك المعيشة البسيطة، وعرفت الحاجة ومن قبل لم([1]) تعرفها..كان بيت أبيها مليئا بالخيرات..مليئا بالكتب..مليئًا بالحنان والحب..صحيح أن (خالد) لم يعاملها بقسوة، ولكنه يعاملها ببرودة[2]، وكأنها ليست الفتاة التي ركض خلفها طويلا، وربما أسلم من أجلها..بلى[3] لكن أحيانا يزهد الناس في الأشياء بمجرد امتلاكها..لم تخبر عائشة والديها بالأمر، فقد تعلمت من (لالة خديجة) الصبر على طبائع الزوج..الآن فقط أدركت كم صبرت أمها..فـ(السي سعيد) رغم طيبته، إلا أنه رجل جدي وصارم، لا يعرف المزاح.

استمر(خالد) في المواظبة على الذهاب إلى المسجد، وحضور الحلقات العلمية، حتى إنه أغلق دكانه، وأصبح قيما على الجامع..وهو ما جعله يكبر أكثر فأكثر في نظر عمه. كانت (عائشة) تزور أمها من وقت إلى آخر، ولا تخرج من بيت والدها إلا وهي محملة بكل أنواع الطعام والفواكه..لم تكن تشتكي لأمها، ولكن (لالة خديجة) انتبهت إلى الصفرة التي تكسو وجه ابنتها، بعد أن كان يشع نضارة وحيوية..تفطنت إلى أنها لا تأكل جيدا ، ولكنها لم **تفتح**

١) لو كانت هكذا: لم تكن تعرفها !! لكان ذلك أكثر لتحديد عدم حاجتها في الزمن الذي يسبق زواجها!!

٢) لعل(برود)أكثرملاءمةللمعنى المقصود من العبارةلأن برد من معانيها فتر وجمعهما على التوالي(البرود والفتور ولعل عبارة القاصة تقصد هذا.أما البرودة فهي ضد الحرارة فـ(برد برودة أي صار باردا،والأرض أصابها البرد . راجع: لسان العرب مادة : برد بتصرف .

٣) بلى: جواب استفهام فيه حرف نفي كقولك: ألم تفعل كذا؟ فيقول: بلى. وفيه معنى الجحد. ويكون للجواب للكلام الذي فيه الجحد كقوله تعالى: (ألست بربكم قالوا بلى). لسان العرب، مادة: بلى. ولعل (نعم) التي تعني التصديق والعِدَة (بكسر العين) هي الأكثر ملاءمة وصحة للمعنى الذي تريد الكاتبة تسجيله هنا.

معها الموضوع أبدا..وكلما سألها السي سعيد عنها، أجابته أنها بخير[1]".وأخيرا كعادة أصحاب المشروع الغربي والمتصادم مع كل ما هو عربي وإسلامي من لصوص الأرض، والثروات، والبشر، وحتى الأعراض، حيث اختفى خالد بزوجه (عائشة) ابنة (السي سعيد)، وغادر بها إلى المجهول ورست سفينتهما إلى هناك حيث قيم الانفتاح والحرية الماجنة وبيع وشراء كل شيء!! حيث يعرف (السي سعيد)أنه هرب بها إلى فرنسا وباسم(خوليو) وليس (خالد)!!، فأرسل ولده (هشام) ًا إلى فرنسا؛ ليبحث عن أخته ويردها إلى وطنها وأسرتها، يعيدها إلى هويتها، لكنه بعد معاناة البحث،وجدها،ويا لهول ما وجدها!! وجدها مقتولة في حادث أليم ومخجل!!: "..اتصلت الشرطة بهم، تخبرهم بوجود جثة تشبه الصور الموجودة عندهم..لكن مظهرها واسمها غير ذلك..هرع هشام إلى المركز..عرضوا عليه أكثر من جثة ..وقف عند واحدة، لمح وحمة في معصمها، وصرخ –عائشة، عائشة .. ماذا فعلوا بك.. كانت ترتدي ملابس تظهر أكثر مما تستر، ووجهها مطلي بألوان من المكياج([2])..ورصاصة قد اخترقت رأسها.. كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما..أغلقهما وكان آخر عهده بها..بكى بشدة فأبعده الشرطي، وأخذه إلى المكتب ليكملوا الإجراءات..تبين أن الجثة تحمل اسم مونيكا، بائعة هوى..تم تصفيتها وبعض رفيقاتها من قبل عصابة .. لكنها عائشة في الحقيقة..عائشة الجميلة البريئة.. اللعين أخذها إلى باريس ليتاجر بها.. فبأي وجه سيقابل والديه.[3]"؟!.

هكذا كان مصير هذه الفتاة المسلمة، ذات العفة والحياء والطهر في بيت أبيها، ذي الهوية العربية الإسلامية، وصاحب المشروع الحضاري الإنساني

١) القصة ص : ٤٦ .

٢) كلمة(المكياج) غير عربية، وكان من الأفضل أن تسك العبارة هكذا: ووجهها مطلي بألوان المساحيق!!.

٣) القصة ص: ٤٨ .

الذي يؤمن إلى الحياة والتعايش والتجانس والوئام بين بني الإنسان، أيًّا كان لونه أو عرقه أو جنسه أو عقيدته!! أما هذا الزوج المجرم اللص، لص الأرض والبشر والأعراض، هو الذي دفعها إلى هذا العالم، عالم الضعة والهوان، عالم التحضر الزائف والكراهية، عالم الهمجية والفوضى التي شكلت وعي (خولي) وأمثاله ممن يمثلون المشروع الغربي المتصادم والمكتنز بكل ما يطفر من هذه النفوس من قبح وكراهية واستلاب، في عالم يدعي هؤلاء وأمثالهم من صنائعهم، الحضارة والقيم والأخلاق، من تلك التي جعلتهم يسلكون مثل هذا المسلك المشين والمنحط في ممارساتهم ضد الآخر!! .

الصراع : التئام وتوافق

شخصية (هشام) ابن(السي سعيد)؛الذي يمثل الهوية العربية بكل امتلائها الحضاري وعفويتها الإنسانية، ولكنه شأن الكثيرين من شباب الأمة الإسلامية في الظرف التاريخي والسياسي الحالي، يعاني من الاضمحلال والاهتراء والانهزامية. ومن ثم،الكمون الحضاري والتمزق السياسي والتفكك الاجتماعي، والانهيار الاقتصادي، حتى ولو كانت خزانة البنك المركزي تمتلئ بالمليارات!!، والذي جعله ينبهر يوما ما، وهو يبيع الملابس التقليدية والمجسمات الأثرية، بالفتاة الغربية(ماري) والتي مزجت في أصلها بين الدماء الإنجليزية والفرنسية، فرأى فيها بطريقة أو بأخرى الأمل في الانعتاق من واقعه، والاستعلاء على كل أمراضه وغوائله!!.إنها القشة التي ربما تحمله إلى الشاطئ الآخر دون النظر لما يمكن أن ينتظره من مصير، مجرد أن ترسو سفينته على الشاطئ!!. فكانت هاتان الشخصيتان تمثلان حالة التقاء صحيح أنها نادرة الوجود لكنها ليست مستحيلة!!. يمكننا أن نقول عن هاتين الشخصيتين: إنهما التقتا في منتصف الطريق، حاولا معا أن يقودا تيارا ثالثا، يحاول أن يوائم بين التيارين المتقابلين،حاولا معا أن يذيبا الفوارق ويجسرا الهوة بين ما هو عربي

إسلامي،وما غربي مسيحي!! حاولا أن يكونا حمامة السلام بين شاطئي الصراع، أن يبحثا عن المساحات المشتركة في الحضارتين العربية الإسلامية والغربية المسيحية، حاولا أن يدفعان هذه العلاقة نحو المشتركات الحضارية؛ ليجدا طريقا ما للحياة والتعاون والبناء، وليس الصدام والانحراف والفوضى، التي ينشدها المتشددون من هؤلاء وأولئك من الطرفين؛ مشعلو الحرائق من السفهاء والجهال والمتنطعين ودعاة الهدم والكراهية بين الشعوب والأجناس والأعراق، والذين أهملوا وأشاحوا بوجوههم المكفهرة عن قيم الحب والخير والجمال والتعايش والبناء، وهرعوا نحو شهواتهم في القتل والغزو والتدمير على نحو ما نرى في واقعنا الأليم.!!

تحاول القاصة أن تصنع وشيجة ما، عبر هذه الجديلة بين ما هو عربي وما هو غربي، ولعل أسرة مغربية عايشت هذا الواقع الذي يطرح هذه الرؤية بوصف المغرب دولة إفريقية عربية مسلمة، عانت من ويلات الاستعمار الفرنسي مثلما عانت بقية دول الإقليم (المغرب الكبير)كالجزائر وتونس وليبيا التي وقعت فريسة الاستعمار الإيطالي،الذي ما تزال شوائبه عالقةبهذه المجتمعات حتى يومنا هذا تحت إغراء التقدم والحرية والمبادئ الحضارية الغربية، وفي الوقت نفسه الهروب من وطأة الواقع الذي خلقه هذا الاستعمار البغيض وأطفأ أي بادرة أمل في اللحاق بما يتنادى به من قيم في مجتمعه الغربي!! لعل هذه الأسرة –وليس غيرها–هي القادرة على أن تطرح القاصة عبرها هذه الرؤية، التي تشكل مسرحا ملائما للصراع الحضاري في تشكيل عملها الفني. ربما هذا ما لفت نظر القاصة، ووجه اختيارها نحو تدبير نقطة التقاء بين النمط العربي المسلم (الأسرة المغربية) وما هو غربي مسيحي، الذي يمثله الأنماط البشرية الغربية(إيزابيلا/خوليو/ماري)، والموطن/مسرح

الأحداث(المغرب وفرنسا)، وهذا ما يحملنا على أن نقر لها بالنجاح في إقناعنا بهذا الاختيار، فبؤرة الصراع هنا كان لها وهجها وسطوعها في فضاء التشكيل الفني لقصتها، وأثرها في كل آليات البناء الفني، على نحو ما سنرى في المقاطع القصصية التي سنوظفها لإبراز هذه العلاقة.

** (هشام) البطل شأنه شأن الكثيرين من الشباب العربي الذي فقدوا الأمل في حياة كريمة في أوطانهم، واضطرتهم الظروف الحياتية إلى ترك تعليمهم مبكرا دون إحراز هدف يذكر!! وأخذوا يبحثون عن تحقيق ذواتهم في أماكن أخرى مشرعين أبصارهم نحو العالم الغربي، هناك فيما وراء البحار، يحدوهم الأمل في البحث عن فرصة للهجرة إلى هناك حيث البهرجة والمال والقيم الحضارية التي يطمح في تحصيلها كل شباب العرب مما يفتقدونه للأسف في بلادهم الأصلية، والتي تكاد أن تخنقه ظروف واقعه المعاش،..كل هذا جعل البطل يرنو بعيدا إلى ما وراء الشمس الساطعة حيث بلاد الضباب ورغد العيش، والجمال الفاتن في فرنسا عاصمة النور والجمال، والعمل الكريم الذي يجلب المال الوفير الذي يغير واقعه وينتشله من وهدة الفقر والضياع!!. كل هذه الطموحات تعدل توجه الشباب العربي وتدير رؤوسهم نحو هذه المجتمعات التي تمثل لهم (المدينة/الحلم/الفاضلة)، طوق النجاة!!. ومن ثم، تصرفهم هذه الآمال الموهومة، والأحلام الساذجة عن واقعهم، فيدوسون على قيم مجتمعاتهم ومبادئها التي لم تقدم لهم شيئا ذا قيمة، أو تلبي حاجات الحياة التي يطمحون!!. "هشام شاب من أصول مغربية، في الخامسة والعشرين من العمر، معتدل القامة، أسمر البشرة والعينين، لم يكمل دراسته.. كانت الثانوية آخر عهده بطلب العلم.. اتجه للتجارة الحرة ليؤمّن مصروف جيبه، ويحفظ عن السؤال ماء وجهه.[١]"

١) القصة ص : ٤٢

تحاول القاصةعبر مقطعها القصصي السابق أن تعرفنا على البطل هشام موظفة تقنية إبداعية أو أداة –إن جاز التعبير–يطلق عليها(الوصف)، بوصفه تقنية تعنى برسم الملامح الخارجية للشخصية. والأوصاف كما يقول النقاد لا تصاغ لمجرد الوصف، بل لأنها تسهم في بناء الشخصية، وهي جزء من واقعها،وهي تتفاعل عبر الآليات الأخرى في إنجاز عملية البناء. فالوصف، باعتباره أداة فنية تسهم في تشكيل العمل الفني، له حضوره الفاعل في بناء الشخصيات، فتغدو واضحة الملامح والتقاطيع الجسدية من منظور السارد؛ لأنه يقدم كل هذا الكم الهائل، في لغة دقيقة ومحددة وسريعة في الوقت نفسه، وملتحمة عبر خيوط النسيج الأخرى، فتسهم في تنامي القصة وتطورها، وتفاعل مفرداتها، وتلاحمها في تشكيلها النهائي. فمثلا عند تقديم الشخصية القصصية، نجد الوصف بدلالاته الخاصة وقيمه الجمالية، يكشف عن ملامحها الخارجية ودخائلها النفسية، ويشير إلى مزاجها وطباعها.."فكل مقطع من مقاطع الوصف يخدم بناء الشخصية أو الحدث، وله أثره المباشر أو غير المباشر في تطورهما، وهكذا تلتحم –عن طريقه– كل العناصر المكونة للتركيبة القصصية، فتكتمل الوحدة العضوية للعمل، وتصبح الأجزاء المختلفة مرايا يعكس بعضها بعضا؛ لتقديم الصورة المجسدة. كما يؤدي الوصف ما يمكن تسميته بالوظيفة الإيهامية، خاصة عندما يقف عند التفاصيل الصغيرة داخل الإطار الإبداعي للقصة، إذ يدخل العالم الخارجي بتفاصيله الصغيرة في عالم القصة التخييلي، ويشعر القارئ أنه يعيش في عالم الواقع، لا عالم الخيال، ويخلق انطباعًا بالحقيقة، أو تأثيرًا مباشرًا بالواقع[1]". ومن ثم، يمثل الوصف في الإبداع القصصي عنصرا ذا أهمية خاصة، لأنه مفجر لطاقات تلك اللغة الجديدة، التي

(١)بناء الرواية: دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ ص٨٢، د.سيزا قاسم–الهيئةالمصريةالعامةللكتاب١٩٨٤القاهرة

تجمع بين الخارج والداخل، ومثير للانفعالات والأحاسيس المختزنة في ذهن المتلقي، ومعمق للحدث، وباعث على التأمل ومكثف للجوانب الشعرية، التي لا ينبغي أن يخلو منها أي عمل روائي أو قصصي[١]. – "الله يعطيك ويغنيك ويبعد عليك ولاد الحرام". إنه الدعاء الجميل الذي تودع به كل صباح، لالة خديجة ابنها هشام وهو متجه إلى العمل..تدعو له بالتوفيق عسى أن يحظى بالربح الوفير،فطلب الرزق في مدينة جبل طارق ليس بالأمر السهل..لأن هذه المستعمرة البريطانية لا تحتوي الكثير من الخيرات،وبالتالي الكثير من فرص العمل..خاصة لمن لا يحملون الشهادات كحال هشام.[٢] "

الدعاء تيمة إبداعية تحاول القاصة أن تبلور عبرها تلك الحميمية في العلاقة بين هشام) والأم (لالة خديجة) كعادة كل الأمهات في عالمنا العربي اللائي يشيعن أولادهن صباح كل يوم في خروجهم للعمل، وكأنها تريد أن تتقدم لنا خصوصية العلاقة بين الأم/الأسرة وأبنائها في الوعي الجمعي للعرب. بخلاف الآخرين الذين يشيعون أبناءهم في مرحلة مبكرة من حياتهم، لا ليرزقوا من أعمالهم ويعودوا سالمين، ولكن لتفتح لهم الدنيا ذراعيها، ويذوبون في دروبها، مستئنفين حياتهم بعيدا عنها!! هذا الملمح الإنساني في تفكير الأم العربية له خصوصيته في عقلها وتفكيرها وذاكرتها الحضارية. "..لم يرث هشام من والده شغفه بالعلم والكتب والتاريخ..حتى إنه ترك المدرسة في سن مبكرة رغم إلحاح السي سعيد، بل اختار طلب الرزق..واتخذ من شراء قطع الملابس وبيعها تجارته التي في نظره لن تبور..إذ لا شغل للناس غير الأكل واللبس.. كان هشام سعيدا في عمله البسيط، رفض إكمال دراسته لأنها في نظره مضيعة للوقت، كما رفض العمل مع والده في الأرض، لقد أراد تحقيق

(١) مسيرة الرواية في مصر ص ٢٨٨ د/حامد أبوأحمد. الهيئة العامة لقصور الثقافة. كتابات نقدية–ع٩١. ١٩٩٩ م، مصر
(٢) القصة ص : ٤٢

ذاته بنفسه وجهده.. وكان كثير الاحتكاك بالسياح الذين يفدون باستمرار إلى مدينتهم، بحكم طبيعة عمله، فهو يبيع مختلف أنواع الملابس للرجال والنساء والأطفال .. يفرشها على الطاولة بطريقة جميلة، إلى جانب بعض التحف والآثار التي تستهوي السياح كذكرى من هذه المدينة التاريخية..[١]".

وهنا تحاول القاصة أن تدبر لقاء، يمثل ضربة البداية في هذه العلاقة بين (هشام) الشاب العربي ذي الأصول المغربية، والفتاة الشقراء (ماري) التي تبحث عن التحف الأثرية لتقتنيها في حوزتها، وكأن الغرب لم يكفه سرقة الأوطان، وما تكتنزه من آثار مثار الفخر وآية الجمال في تاريخ الأمم وواقعها، بل يبحث حتى عن المجسمات التي يمكن أن تذكر هؤلاء بمجدهم وتاريخهم وحضارتهم في تلك البلاد التي استلبوها، ويدأبون في تغيير هويتها ومحو أمارات عروبتها وإسلامها، على النحو الذي نراه في كل عضو سقط أو أسقط من جسد الأمة الإسلامية."..من بعيد لمح فتاة شقراء جميلة.. تشتري من الباعة القريبين منه.. اقتربت من طاولته تقلب بعض التحف يبدو أنها مهتمة بها وعلى معرفةبتاريخها

– صباح الخير، هل أجد عندك قطعة لقصر الحمراء؟.

كلمته باللغة الانجليزية التي يحسنها أيضا إلى جانب الاسبانية.. فأجابها:

– صباح الخير، الحقيقة ليست عندي الآن، لكن يمكن أن أوفرها لك لو عدت في الغد، أملك واحدة رائعة تحاكي قصر الحمراء كما لو كانت حقيقية!![٢]".

في باحة التراث الفسيحة، وعلى قارعته الرابية، يلتقي (هشام) بـ (ماري)؛ الفتاة الشقراء، رمز الحضارة الغربية بقيمها ومبادئها التي تبحث عن كل ما يساند العرب والمسلمين، ويثبت وجودهم التاريخي والحضاري في أي وطن

١) القصة ص : ٤٣ .

٢) القصة ص :٤٤ .

سلب منهم، يحاولون أن يستولوا على هذه الخصوصية الحضارية ، يبحثون عن الجذور التي تدعم وجودهم وتؤكد هوية هذه الأرض التي ما يزالون يعيشون عليها، وتتنفس عبير وجودهم، وبرغم ذلك يصرون على سرقتها!! وإن لم يستطيعوا نسبتها لأنفسهم فلا أقل من أن يشككوا في أحقية المسلمين فيها!! وهذا شأن كل مغتصب أو محتل، يحاول وبشتى الطرق أن يخلع عن أهل البلد الأصليين كل ما يمكن أن يؤكد حقهم، أو يساند وجودهم، ورسوخ قدمهم، في هذا البلد أو ذاك!!، بل ويبحث عن أي شيء ولو كان ضئيلا أو تافها يساند كذبته الكبرى في أهليته لهذه الأرض، كما في فلسطين!!. ولن يعدموا من يساندهم من الخونة أو العملاء أو التافهين من أهل البلاد في ذلك، سواء بالتواطؤ، أو البيع والشراء، أو حتى بالغفلة وعدم الاكتراث!! و(هشام) كان من هذا النوع غير المكترث، لا بالتاريخ ولا بالثقافة ولا بالعلم ولا بالآثار!!، ولا حتى بكلام أبيه عن أصولهم، وأمجاد أبائه وأجداده العرب المسلمين،وتاريخهم التالد في هذه البلاد!!. ومن ثم، وعدها بالمجسم(مجسم قصرالحمراء)الذي يحتفي به والده ويقتنيه،وكان يذكره بمجد آبائه وحضارتهم الإنسانية راعية البناء والعمران، ومبدعة آيات الجمال والفخار في بلاد المغرب العربي؛ حاضرة الأندلس المجيدة، وعدها أن يبيعها إياه!!.

" – مرحبا ..أتيت منذ يومين ولم أجدك !!.

اعتذر هشام للسائحة.. ثم أظهر لها المجسم.. أخذت تقلبه بين يديها الناعمتين.. انبهرت به..فتحت فمها باندهاش..أوه يا إلهي.. إنه رائع جدا.. كم ثمنه من فضلك؟. كان هشام يفكر أن يبيعه بثمن كبير، قبل أن يتراجع عندما رأى شدة إعجاب الفتاة به.. لقد كادت عيناها الواسعتين تلتهمان المجسم، فقرر إهداءه لها .. تنازل لها عن قصر الحمراء أغلى ما ورثه السي سعيد..وقبله تنازل أبو محمد الصغير عن غرناطة، بل عن الأندلس كلها..إنه التاريخ يعيد

نفسه لكن بصور وطرق مختلفة .. فرحت الفتاة كثيرا، وقدمت نفسها بسرعة– أعتذر..نسيت نفسي..المجسم رائع كأنه حقيقي..منذ زمن وأنا أبحث عنه.. اسمي ماري، من فرنسا. وقعت كلمة فرنسا على هشام بردا وسلاما،فلطالما حلم بالذهاب إليها،والاستقرار فيها، بلاد الموضة والفن.. بلاد العطور والحضارة.. أرض الجن والملائكة كما يقولون[1]".هنا حدثت لحظة(الالتماع)،لحظة الصدفة الحضارية بين(هشام)و(ماري)؛لحظة تحقيق الحلم،لحظة تحقيق الأمل والانحياز نحو الآخر، بخصائصه الحضارية (الاندماج الحضاري–لو صحت العبارة–بلحظة ما بعد الانبهار بكل ما تكتنز الحضارة الغربية الغالبة في الآن، على حساب حضارته التي تتجرع الهزائم؛ الهزيمة تلو الأخرى،على كافة المستويات!. فالمسلمون،والعرب خاصة منهم،يعانون مما يمكن تسميته بالكمون أو الوهن الحضاري،الذي لم نحرز في حينه أي منجز حضاري فحسب،بل أصبحنا ندفع عن أنفسنا جرائم وسلبيات، تعيق وجودنا في هذا العالم أو حتى تمنحنا شيء من التعاطف أو الإنصاف سيما،عندما يخرج عليك الهمج والغوغاء والعملاء، يرفعون رايات لقيطة كتبت عليها عبارات وصور تنال من قيوميتنا على حضارة، كانت يوما–وما تزال–تعلم الناس، وتدفع نحو البناء والارتقاء والعمران، في الوقت الذي كانت حراب الآخرين من الصليبيين، وغيرهم من همج العالم، الذي يدعي التحضر، وتجار الحروب في العصر الحديث، في الغرب والشرق يدعون إلى تدمير كل ما كان يعمر هذا الكون ويتيحه للحياة والعمران!! .

أَلِفَت (ماري) الحديث مع (هشام)، سيما وهي قد قطعت شوطا كبيرا في علاقتهما معا. سيما، عندما أفهمته أنها باستطاعتها أن تقدم له الكثير!!

---

١) القصة ص :٤٤ .

أصبحت تتردد عليه في عمله، مما أدهشه وجعله يفكر في ماري: كيف تقول إنها سائحة وقد طال بقاؤها في مدينتهم:"كان هشام يعيش في عالمه الخاص،عالم التجارة والربح..وماري التي أصبحت تتردد عليه في العمل بين الحين والآخر..وهو الأمر الذي حيره، فقد عرفها سائحة، لكن مدة بقائها في مدينة طارق قد طالت..سألها ذات مرة، فتفاجأ حين عرف أن بعض أصولها من هنا..أبوها بريطاني الأصل،عمل عسكريا منذ زمن طويل، قبل أن يقضي مؤخرا .. تعرف على أمها الفرنسية عندما جاءت سائحة ذات مرة.. عاشا معا في هذه البلدة، ثم انفصلا لأن أمها لم تستطع التأقلم هنا..ولا أبوها استطاع ترك عمله واللحاق بها، فانكب على الخمر يشربها ليل نهار..حتى قضت عليه قبل سنتين.. كان عمر ماري حين انفصل والديها خمس سنوات..وهي الآن تحرص على زيارة مدينة أبيها كل عام.. تبقى عند جدتها الإسبانية لشهرين، ثم تعود إلى فرنسا..كان هشام ينصت باهتمام..ويفكر في هذه التركيبة الغريبة العجيبة.. بعضها فرنسي، وبعضها الآخر بريطاني، وهذا البريطاني أمه إسبانية..كل جينات العالم اجتمعت في ماري..عرضت عليه ذات مرة زيارة فرنسا فلم يمانع .. لكنه أراد أكثر من الزيارة .. لطالما حلم بالاستقرار هناك..والتباهي أمام أصحابه..وأمام مريم أيضا.([1])"هاهو الانبهار يسلب (هشاما) لُبَّه وإرادته معا، جعله أسير رغباتها. سيما إذا كانت هذه تلبي بعضا من طموحاته في الهجرة إلى فرنسا!!.

لم تعد علاقة (ماري) بـ(هشام) وحده، لكنها تطورت وزحفت نحو بقية الأسرة. فكلما وقع منهم شخص في مأزق كانت سرعان ما تمتد يدها بالمساعد لإنقاذه!!، وبهذا تطوي خطوة في المسافة التي تمتد بينها وبين هذه الأسرة.. فعندما اختفت (عائشة) وزوجها(خالد)،عرضت المساعدة عبر أقربائها

١) القصة ص : ٤٧ .

ومعارفها؛ لتعرف سبب ذلك. وفعلا توصلت إلى أنهما غادرا منذ أيام إلى فرنسا باسميهما (عائشة) و(خوليو)، وعندما قُبض على (السي سعيد مورو) وأودع في السجن، وعندما عرفت بذلك أيضا، عرضت المساعدة على أسرته، في أن تعرف ماذا حدث؟ واستطاعت عبر معارفها وجماعتها أن تتوسط له!!، وتعرف ماذا حدث له؟، وساعدته في الخروج من السجن، بشرط أن يلزم بيته، ولا يتحدث في السياسة، ولا ينتقد نظام الحكم القائم في مدينة (جبل طارق)!!. كل هذا، مهد لها التوغل في هذه الأسرة، وأثقلت أفعالها أعناقهم بما لا يستطيعون معه الفكاك منها!! وربما ذلك حفزها على اتخاذ خطوة أكثر اتساعا من ذي قبل، خطوة لها كان دورها الرئيس في عملية الاندماج الذي كانا يطمحان إليه، عملية تعالق بين ما هو عربي مسلم، وبين ما هو غربي مسيحي!!:"ذات مساء، وبينما كانت العائلة مجتمعة حول مائدة العشاء، إذ بطرق على الباب.. من تراه يزورهم في هذه الساعة.. فتح هشام الباب فعقدت الدهشة لسانه .. إنها ماري .. لكنها متحجبة.. الله أكبر لقد أسلمت بإرادتها ودون أن يؤثر عليها أحد.. عانقتها لالة خديجة بشدة .. ونزلت دمعة الفرحة من عيني السي سعيد..

استغل هشام الفرصة فطلب من أمه أن تخطبها وعلى الفور .. كان في نيته ذلك، حتى قبل أن تسلم، فقد اجتمعت فيها كل الخصال التي يحبها، فهي فتاة جميلة ومثقفة، وطيبة وخدومة .. وبعد أسبوع تم الزفاف .. وانتقلت مريم، وهو اسمها الجديد، إلى العيش في بيت السي سعيد لتملأ، ولو قليلا[1]، الفراغ الذي تركته عائشة .. ورغم أنهما عاملاها بمنتهى اللطف والاحترام .. إلا أنها كانت تشعر بحزنهما الذي نغص عليهما الحياة .. أرادت مساعدتهما لإيجاد عائشة.. اقتراحات على هشام السفر إلى فرنسا والبحث عنها .. صحيح

١) هذه جملة معترضة كان ينبغي وضعها بين شَرطتين هكذا (لتملأ – ولو قليلا _ الفراغ الذي تركته عائشة) بدلا من الفصلتين اللتين ليس موضعهما هنا.

سيكونان كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، لكن لا ضير من المحاولة .. وافق هشام لأنه كان يلوم نفسه أيضا على فقدان عائشة .. فهو لم يسأل عن زوجها حين تقدم لها .. ولا سأل عن أحوالها بعد الزواج..كان همه التجارة وجمع المال .. الآن فقط أدرك قيمة العائلة .. والآن فقط أدرك كم كان يحب عائشة التي تركت فراغا رهيبا في حياته[١]".

تحاول (مريم) أن تطوي المسافات بينها وبين تلك العائلة التي تتوجس خيفة من الغربيين والغربيات، اللذين نغصوا عليهم حياتهم، وسرقوا- إلى جانب كل ما سرقوه-أبناءهم، والسكينة والطمأنينة من نفوسهم، وحتى الاستمتاع بأولادهم، والفرحة بأنسهم أو نجاحهم في الحياة!!. ومن ثم، كانت تحاول أن تدرأ عن نفسها كل هذه الشبهات، وتبعد عن تفكيرهم كل هذه المخاوف، وتنفي عنها هي بالذات كل ما كان يروج أو يقع من بني جنسها، أو أهلها، فدائما ما كانت تسارع بعرض المساعدة، وتتحقق لها كل ما كانت تتصدى له، وتحل عن طريقها كل المشكلات!!. كل هذا جعلها قريبة من قلب (هشام) وأسرته، وجعلهم يستجيبون لها ويزوجونها لابنهم الذي بقي لهم من كل من ولدوا!!. فعاطفة العربي والمسلم دائما ما تسبق عقله في التفكير!!. ولو أنهم أدركوا ما أوجعهم من لدغات كثيرات سبقت لما أمِنَّ لها مهما بالغت في الحرص، وبذلت في المساعدة!! لكن الشيخ وأسرته يتمتعون بقيم ومبادئ حضارية تمنعهم بأن يؤاخذوا (مريم) بما فعله (خوليو) مثلا!! فقرآنهم الكريم علمهم، قال تعالى:"**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴿١٠﴾**[٢]".

١) القصة ص: ٤٧ .

٢) سورة المائدة الآيات :٨، ٩، ١٠ .

وقوله تعالى:"**مَنِ اهتَدى فَإِنَّما يَهتَدي لِنَفسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسولًا﴿١٥﴾**"[1].وقوله تعالى:"**أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴿٣٩﴾وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴿٤٠﴾ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴿٤١﴾وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴿٤٢﴾**"[2]

كل هذا المخزون الحضاري التي أترعت به آيات القرآن الكريم؛ دستور الإيمان في عقيدة المسلم، والمرتقي الحضاري والأدبي في وجدان المؤمنين، هو الذي جعله يتجاوب مع خطوات التقارب الإنساني،التي بادرت بها (ماري/مريم)، وامتلكت عليهم شغاف قلوبهم، وجعلتهم يأنسون لها، ويثقون بها. ومن ثم، يختارونها زوجة لابنهم، حتى ولو كانت تخدعهم!! فمن خدعهم في الله انخدعوا له!!. هذه شيمة المسلمين وأخلاقهم، التي رباهم عليها القرآن الكريم ورسولهم الأكرم(ﷺ). استجابت الأسرة لرأي (مريم)؛زوج ابنهم(هشام)،في أن يسافر للبحث عن أخته(عائشة)،ووجدت النصيحة صداها عند(هشام)؛ لأنه- فوق أنه يلوم نفسه لتقصيره في حق أخته في أنه انشغل عنها بتجارته، ولم يسأل عن زوجها بشكل كاف، ولم يواليها بالزيارة في بيتها؛ هي وزوجها، مما سهل لزوجها الخائن أن يهرب بها من أسرتها وبلدها وواقعها-تحقق له هذه المهمة هدفه وأمله في الهجرة من موطنه إلى (فرنسا) بلد الآمال والأحلام التي طالما كان يمني نفسه بالسفر إليها!!.:"سافرت مريم إلى فرنسا قبل هشام..كان يلزمه بعض الأوراق للحصول على الإقامة..وسرعان ما التحق بها بعد مدة..بحثت له عن عمل في أحد المتاجر..بينما كانت تعمل هي مع والدتها التي تملك محلا لبيع أدوات التجميل والتزيين..ومع الوقت جمعا بعض المال واكترى محلا يديره بنفسه..فالتجارة لعبته التي يجيدها منذ زمن..نجح فيها

١) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

٢) سورة النجم الآيات : ٣٨ إلى : ٤٢ .

وتضاعفت أرباحه..أخيرا حقق حلمه..لكنه لم يأت لأجل هذا بل لأمر آخر..لم يترك وسيلة إلا ولجأ إليها.. قام بتوزيع صورها على الجرائد،ومراكز الشرطة، وبدورها اتصلت مريم بكل معارفها. كانت مريم قد أنهت دراستها منذ سنتين في كلية الفنون والموسيقى، وكان العزف على مختلف الآلات هوايتها المفضلة..حتى إنها كانت تشارك في بعض الحفلات التي ينظمها مركز الفنون بباريس..لكنها أحجمت عن ذلك منذ إسلامها..وصلتها مؤخرا دعوة لحضور حفل سيقام هناك..امتنعت في البداية، لكن هشام شجعها، فقد تنازلت عن أشياء كثيرة من أجله،ولن يضر حضورها حفلةواحدة كمدعوة لا أكثر[١]".

هكذا تماهى (هشام) في شخصية (مريم) وكانت تجربة الامتزاج ناجحة بامتياز، صعدا معا إلى جوار بعضهما سلم الرقي الحضاري والسمو الوجداني، استطاعا وبرغم كل رياح السموم التي تهب عليهما، أن يتوافقا بدرجة ما، وتتلاءم قيمهما الحضارية ومبادئهما الإنسانية طالما أن هدفهما واحد، الإنسان. الإنسان مجردا من المطامع والانتهازية، والعنف والإجرام، كانا يسموان بعلاقتهما حيث الإنسان الخليفة في الأرض، الذي خلقه الله من أجل العبادة، التي تعني وتشمل كل مناشط الحياة، الإنسان بكل قيمه الحضارية ومناشطه الوجدانية والفكرية والثقافية والدينية، التي تسعى لإتاحة حياة كريمة وناعمة وطيبة، تفسح فيها لكل إنسان مكانا كي يمارس دوره الحضاري في البناء والعمران والتحضر، ونشدان العدالة والفضيلة، وقيم الخير والحب والجمال، وتكره إليه كل ما من شأنه أن ينقض هذا البنيان، أو يقوض أركانه، من ما يدعو إلى الخراب والهدم والفوضي والعنف والكراهية. ومن ثم، القتل باسم الدين مرة، وباسم الكراهية مرة، وباسم احتكار الحياة مرة، وباسم كل ما من شأن أن يهدم بنيان الحضارة والعمران مرة ومرات!!. لكن بعد كل هذا، هل قوى الشر

١) القصة ص : ٤٨ .

تسمح لهذه التجربة أن تنمو وتترعرع، وتجد لها متنفسا للحياة؟ هل تجد لها مكانا ولو ضيقا تضيء وتتوهج في كل هذا العالم؟!!. ليتهم يسمحون!:"..كان هشام ينوي مغادرة باريس بصفة نهائية، والعودة إلى أرض الوطن، لم يبق له أحد هنا، ثم إنه جمع من المال ما يكفيه ليعيش في مدينة طارق كالملوك.. ليعيش وسط أهله وأصحابه..حجز على أول طائرة.. وقبل السفر بساعة قصد مركز (باتاكالون) للفنون،آخر مكان قصدته مريم، وفيه قضت..ليته لم يشجعها.. ليته منعها. مازال يتذكر اللباس الأبيض الذي ارتدته يومها، فكان كفنا لها .. أوصلها إلى غاية باب المركز(١)على أن يعود بعد ساعة لأخذها..لم يبق معها رغم إلحاحها،لأن هذا النوع من الموسيقى لا يروقه .. وهو عمومًا ليس من عشاق الغناء والطرب ، فقط تلك الأغنية المغربية التي كانت مريم تطلب منه أن يغنيها لها، فتفرح كالأطفال:"يا بنت الناس..أنا مسكين دراهم يومي معدودة، إنما عندي قلب كبير، بحر شطآنه ممدودة..وفهميني فهميني يا بنت الناس.. عاد فعلا بعد ساعة، لكن ليستلمها جثة هامدة..المجرمون..القتلة..ما ذنب الأبرياء(٢). ومنذ اليوم المشئوم وهو يقصد المركز ليضع فيه زهورا بيضاء، كانت تحبها كثيرا..صح هو لا يؤمن بهذه الأفكاروالعادات..لم يستطع نسيانها..وقديما كان العربي يتعلق بالمكان الذي يتواجد فيه الحبيب، حتى إذا تركه، ظل واقفا عليه يبكي ويتذكر.(٣)"

اللجوء إلى التراث الشعبي، كالموال والسيرة والأغنيات الشعبية، التي ينتجها العقل الجمعي لأمة ما، أو جماعة، أو عرق، أو حضارة، يشكل قيمة حضارية

١) لعل اختصار الجملة هكذا أكثر ملاءمة: أوصلها إلى باب المركز! لكنه! فإلى تدل على الغاية ووجود كلمة غاية يصبح تكرارا ممجوجا وثقيلا وبلا جدوى !! .

٢) القصة ص :٤٨

٣) القصة ص : ٤٨ .

ووجدانية، تتشكل عبر الوعي الجمعي كذلك لهذه الأمة أو الجماعة أو العرق، كما تسعى هذه التقنية لإعادة الوعي بالمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان؛ بقيمه الإنسانية والحضارية بكافة مظاهرها ومناشطها الحياتية، كما يؤكد هذا التوظيف انتماء الإنسان إلى وطنه وبيئته وحضارته، بتمثله مثل هذه الأغنيات وأخواتهن المنتجة في وعي مجتمعه. فيحاول استزراع ذاته، وتثبيت وجودها في واقعه، في ثقافته، في أرضه، في حضارته، على النحو الذي يستهوي شخصيات العمل الفني وكأنهم عبر رحلة الحياة في العمل الأدبي يعانون غربة من نوع ما، يستعلون عليها ويحطمون قيودها، بهذه العودة إلى تراثهم الفني الذي ينعش نفوسهم، ويلامس وجدانهم، فيعودوا لذواتهم، إلى الأرض التي اقتلعوا منها!!. ومن ثم، يجدوا أنفسهم بعد أن تاهوا منها!!.

أخيرا أسدل المجرمون الستار على هذه التجربة الحضارية الإنسانية الرائعة بعصا الإرهاب وآلاته الخبيثة والمدمرة على نحو ما نرى، وبالطريقة التي تأباها كل نفس حرة وكريمة، وإنسانية ومتحضرة أنهت هذه التجربة الفريدة، و نحن في عالم اليوم في أمس الحاجة إليها!! سواء العرب المسلمين أم الغربيين بشتى أجناسهم وتوجهاتهم،الذين لا يلبثون أن يبثوا سمومهم في كل شيء،حتى وعندما يسمحون لك بالقرب منهم يخبئون لك الخناجر المسمومة خلف ظهورهم!! وما الواقع الذي نعيشه في العلاقة بيننا وبينهم ببعيد!. قتلوا (مريم) التي أسلمت، وحسن إسلامها، وقدمت الأنموذج الإنساني والحضاري للمسلمة في العالم الذي يموج بالكراهية والتآمر والتصارع، لكنها بإرادتها العصية على الانكسار حاولت أن تتماهى فيما يمكن أن يقدم هذا الشكل من العلاقة المتوازنة بين الإنسان وأخيه الإنسان، عبر علائق متعددة ليس بالزواج وحده، إن كان هو أبرز ما تبلور، وطفا على السطح، لكنها وقبل الزواج قدمت–بإقدام وجرأة وإيمان–كل ألوان المساعد والعمل الصالح،تجاه أسرة ظلمها التحيز ،والتجبر ،والكراهية، التي

كان يمارسها هذا الآخر؛ الكاره للمسلم العربي،لا لشيء إلا لكونه عربي مسلم ليس غير!!، وعندما أرادت أن تقضي على هذه النظرية أو الفرية، كانت أيديهم أسبق لوأدها،وإنهاء حياتها بتلك الطريقة الهمجية المفجعة بأيدي صنائعهم؛ ليقدموا المسلمين في العالم على أنهم همج ورعاع وكارهين للفن والحضارة والتطور، والانتصار للحياة والبهجة والفرح!!.

إنهم رعاة أغنام في الصحراء يتجرعون كئوس التخلف والانحطاط وكراهية الفن والحياة!! وتحطيم ما أنتجته الحضارة من البناء والعمران والموسيقا!! ذلك ما يريدون أن يصمونا به!! ويروجوه عنا هؤلاء المخادعون الكاذبون!!. فالمسلم والعربي خاصة هو بَنّاء الحضارة، ومقيم بنيانها السامق في عالم القيم والمبادئ والإنسانية، التي أخرجت الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس؛ ليخرج الإنسانية كلها وليس العرب أو المسلمين وحدهم، من ظلمات الجهل والفوضى، وكراهية الحياة إلى نور العلم، ورغد الحياة، وعمارة الكون، بكل ما ييسر لهذا الإنسان؛ إنسان العالم، الحياة والطمأنينة والحرية. حيث يعود (هشام) إلى موطنه الذي أدرك أنه ملاذه، فعلى أرضه دَرج ، وفي ربوع هواه نما وترعرع، وتجرع بين أهله وجيرانه كئوس المحبة والتواد والإنسانية والقيم الحضارية؛ نبت هذه الأرض الطيبة. فعاد إلى وطنه وذكرياته وأمله في حياة كريمة بعيدا عن كل هذه المنغصات التي كانت سرابا، وكان يظنها حقيقة وآمالا عراضا، يمكن أن تستوعبه يوما ما!! فمما لا شك فيه لن يستوعبك غير وطنك مهما أوغلت في غربتك: فـ"ما أجمل الوطن!! ورائحة الوطن وهواء الوطن!!.. فيه وحده تشعر بوجودك..وبإنسانيتك..وبحريتك. رغم الفقر والظلم والألم..لا سقف يحتويك غير الوطن[1]". بهذه الترنيمة التي قدمها في المشهد

١) القصة ص : ٤٢ .

الأخير، والذي صَدَّرَ به القصة، عبر تقنية السرد الآني[1]: "وهو سرد في صيغة الحاضر لزمن الحكاية. أي أن أحداث الحكاية وعملية السرد تدوران في زمن واحد"، حيث تضعنا القاصة في قلب الحكاية تحاول الكاتبة أن تغلق الحلقة أو الدائرة التي فتحتها، وأنتجت من خلالها تجربتها الإبداعية، والتي تفتحها بهذه العبارة التي وردت في نهاية القصة، صانعة بما يمكن تسميته بـ(تراسل المشاهد) عبر عملية التقابل مرة، والارتداد مرة، واستشراف الأحداث مرة: ومن ثم، صاح والده عندما التقاه: "عادت الحمراء..عاد هشام..عاد الأمل.."[2]

تلك كانت القفلة التي أوحت بانتصار الأمل، الذي لم يَنْمُ أو يترعرع إلا على أرضه، وفي ساقه،وليس في ساق نابية أو غريبة،حتى ولو كان طرحها مغريا ومثقلا بالثمار!!. قال تعالى:"**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّـهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّـهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٧﴾يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوانُورَ اللَّـهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّـهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿٨﴾هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿٩﴾**[3] " .

الخاتمة

القاصة أمنة بنت منصور، عبر عملية الإبداع –القصة– التي قدمتها تحاول أن تطأ أرضا بكرا في مجال إبداع القصة، ما تزال على الرغم من ما قدمه بعض الروائيين الكبار في عالم الرواية؛ كالأديب الكبير توفيق الحكيم ويوسف إدريس، والطيب صالح، وغيره من كبار الروائيين. إلا أنها المرة الأولى

١) دراسات في النقد الأدبي : نقد القصة ص : ٧٤ . سابق .

٢) القصة ص: ٤٨ .

٣) سورة الصف الآيات : ٧ : ٩ .

التي تتناول فيها كاتبة قصة تقع ما بين الرواية والقصة القصيرة، تطرح عبرها مشكلة الإرهاب، ومعاناة البشرية كلها من مشكلاته، حيث وجدنا التفجير والقتل يطال كل البلاد؛ شرقا وغربا،مسلمين وغير مسلمين،عربا وغربيين، دون تفرقة!!. وتَصْدَع بنداء مفاده: أننا جميعا شركاء في إنتاج هذا السلوك الشيطاني، وكان الأجدر بنا بدلا من أن نفني وقتنا وأموالنا في مواجهته. أن نبحث عن مساحات التعاون والتعايش والتشارك الإنساني، ونؤصل لقيم الحب والخير والعدل والمساواة في مجتمعاتنا، بهذا –وليس بغيره – ننهي كل هذا العبث، الذي هو نتيجة للصراع والكراهية والاحتكار، الذي منتجاته المأساوية في حياتنا على كافة الصُّعُد كما نرى ونعاين.

أهم نتائج الدراسة :

- نجحت الكاتبة في تقديم فكرة الصراع الحضاري في مستوياته المختلفة والمتعددة بين ما يرمز إلى الشرق العربي المسلم،والغرب الأوروبي المسيحي، عبر قصتها على نحو يسهم ليس في تكريس المأساة، ولكن للسعي في حلها والتغلب على منتجاتها وآثارها سواء على الفرد أو المجتمع.
- تنتصر الكاتبة لمبادئ التشارك في الحياة، ولقيم البناء الداعمة للتعالق بين البشر، كل البشر، والرغبة في تأكيد التفاعل وعدم القطيعة بين الأمم والقوى والأفكار المختلفة، والبحث عن المساحات المشتركة بين الحضارات عبر منصات الفكر والدين والسياسة؛ من الوصول إلى حياة تسودها قيم التسامح والتعاون والانسجام على أرضية حضارية منتجة من التصور الإسلامي الذي يحدب على التعارف بين كل الناس.
- أدركت الكاتبة منذ الوهلة الأولى أهمية معالجة الصراع الحضاري بين الأنماط المختلفة، وطي صفحة الماضي المتخمة بالسطور السوداء في تاريخنا. ومن

ثم، حاولت أن تفسح على مسرح الأحداث مكانا بين غابات المآسي . فيستطيع البطل هشام وحبيبته ماري/مريم أن يتعايشا عبر تيار ثالث لا يركن إلى هذا أو ذاك !! لكن غطرسة القوة وشحنات الكراهية الفائضة، أبت أن تمنحهما هذه الفرصة الممكنة بالتفاهم والرغبة في التعايش والتعاون والانسجام.

- تضعنا الكاتبة أمام حقيقة هي أن الأوطان مهما قست، أو زرعت في نفوسنا المعاناة، حاصرتنا بمشكلاتها، فلا بديل عننها! فالوطن–وهذا ما أكدته ثقافاتنا على اختلاف مصادرها الإسلامية والعربية، والإبداع الأدبي والفكري في كل العصور–هو الملاذ الآمن والتربة الخصبة لاستزراع الأمل وتحقيق الأحلام.
- القاصة آمنة بنت منصور ما زالت تخطو أولى خطواتها في عالم الإبداع القصصي. ومن ثم، جاءت تجربتها إلى حد كبير بسيطة وساذجة، خالية من المعطيات التي يمنحها توظيف آليات الفن. ومن ثم يمكننا أن نقول: إنها لم تتوفر لديها مقومات الحرفة في توظيف ما تتيحه التجربة النقدية في نقد القصص، أو النظرية الفنية لبناء القصة القصيرة .

تلك كانت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة. أدعو الله الكريم أن يجعلها فيما هدانا إليه من طيب القول، وأن تسد ثغرة شاغرة في مكتبة الدراسات النقدية للقصة، وأن تلقى القبول لدى المتلقين وأن تفتح أفقا جديدا في مجال الدراسات النقدية. الله تعالى أسأل أن يلهمنا الصواب والتوفيق في كل ما نصبو إليه من عمل يرضيه عنا، وهو سبحانه من وراء القصد، ويهدينا سواء السبيل.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر:

– القرآن الكريم (جل من أنزله).

– ذكريات جبل طارق: قصة قصيرة– للقاصة الدكتورة آمنة بن منصور – منشورة في مجلة (الرابطة) ص(٤٢: ٤٨)على عمودين–العدد(٦٠٢) ربيع الأول ١٤٣٨هـ/ ديسمبر٢٠١٦م – رابطة العالم الإسلامي– المملكة العربية السعودية.

–لسان العرب، جمال الدين بن منظور، تحقيق الأستاذ عبدالله علي الكبير وآخرون، دارالمعارف، دت، مصر

– المعجم الوسيط، أخرجه د.إبراهيم أنيس وآخرون–مجمع اللغة العربية– ثانية– دت–القاهرة.

ثانيا: المراجـــع:

– إشكالية الأنا والآخر د. ماجدة حمود،عالم المعرفة ع٣٩٨ مارس٢٠١٣م المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب–الكويت .

– الأنا والآخر:المواجهةالحضارية في الإبداع الروائي،د.كمال سعد محمد خليفة، مجلة(البيان)ع١٣ج٢– كلية الدراسات الإسلامية والعربية،جامعة الأزهر٢٠١٣م، قنا.

– أركان القصة– أ.م. فورستر: ترجمة: كمال عياد–دار الكرنك–د.ت– القاهرة.**

بناء الرواية– د/عبد الفتاح عثمان– مكتبة الشباب– دت– القاهرة .

–بناء الرواية: دراسة في ثلاثية نجيب محفوظ، د.سيزا قاسم، الهيئةالمصريةالعامة للكتاب١٩٨٤م، القاهرة.

–التجربةالشعرية عند المتلقي، أ.د.عبداللاه محمود حسن محروس، مطبعة الأمانة، ط١ ١٩٨٨م مصر.

– التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جوده السحار – د / صفوت يوسف زيد . الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥م . القاهرة .

–حركة البطل في الرواية الإسلامية، د.كمال سعد محمد خليفة، دار طيبة للطبع والنشر، ط١ ١٩٩٩م أسيوط.
– حساسية الرواية وذائقة المتلقي – عبد الباقي يوسف – كتاب "المجلة العربية"– رقم (١٨٢) صفر١٤٣٥هـ / يناير٢٠١٢ م – المملكة العربية السعودية .
– دراسات في النقد الأدبي : نقد القصة – د. كمال سعد محمد خليفة – مطبعة الكامل– أولى– ١٩٩٩م – أسيوط .
– الشخصية في سوائها وانحرافها– د/مصطفي فهمي (المكتبة الثقافية) عدد ١٦٣ . الدار المصرية للتأليف والترجمة – د ت – مصر ..
– صورة المرأة في الروايةالمعاصرة٩٧. د/طه وادي مركز الشرق الأوسط دت القاهرة.
– في نظرية الرواية –الدكتور عبد الملك مرتاض، بتصرف. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب –عالم المعرفة– عدد(٢٤٠)– ديسمبر١٩٩٨م– الكويت.
–قاموس مصطلحات النقدالأدبي المعاصر–د.سمير حجازي، مكتبة مدبولي١٩٩٠
– قراءة الرواية د. محمود الربيعي–دار المعارف – ثانية ت ١٩٧٤م – مصر.
* اللغة وتقنيات الإبداع القصصي– د.كمال سعد محمد خليفة– مطابع جامعة أم القرى– مركز بحوث اللغة العربية–أولى–١٤٣٠/٢٠٠٩هـ–مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية .
– مسيرة الرواية في مصر، د.حامد أبو أحمد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية ع٩١، ١٩٩٩ مصر.
– النماذج الإنسانية في الدراسات الأدبية المقارنة، ص٥، د/ محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، دت، القاهرة.